بحوث اجتماعية ١٩

صُورَة الشرق في عيونِ الغرب

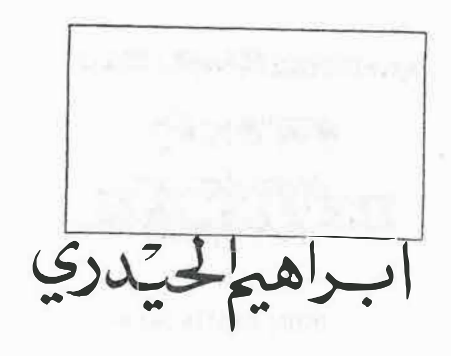
دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي

ابراهيم الحيدري

دار الساقي

صورة الشرق في عيون الغرب

دراسة للأطماع الأجنبية في العالم العربي



ابراهيم الحيدري



دار الساقي

الطبعة الأولى ١٩٩٦

ISBN 1 85516 505 8

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

مقدمة

هذا البحث محاولة متواضعة ، لرسم مخطط موجز لإثنولوجيا الأطماع الأجنبية في العالم العربي ، يتضمّن بعض رحلات الأوروبيين ، وبعض أعمال المستشرقين ، وبعض دراسات الأنثروبولوجيين . وهو يحاول إيضاح أثرها وأبعادها في اكتشاف العالم العربي والإفادة منه ، وصولاً إلى تشكيل صورة تاريخية ، وتحليل سوسيولوجي عن رؤية بعض الأوروبيين ، التي انطبعت في أذهانهم قروناً عدة ، كما ظهرت في آرائهم ، وانعكست في كتاباتهم ، وطُبّقت في ممارساتهم . وهي كلها ترافقت مع قيام علاقات ثقافية وصلات تجارية ، مباشرة أو غير مباشرة ، بين الشرق والغرب ، منذ قيام الحروب الصليبية حتى اليوم .

ومن خلال قراءة جادّة وتحليل نقدي ، لما كتب الرحالون وسواهم عن الشرق عموماً ، وعن العالم العربي ـ الإسلامي خصوصاً ، والتي تعكس ، في الوقت نفسه ، الأهمية الحضارية والثقافية والإستراتيجية للعالم العربي ، وما قدّمه من إنجازات علمية وفلسفية ، ومن ثم ، أهمية المعرفة العلمية والتكنولوجية الأوروبية وتأثيرها في عالمنا المعاصر ، باعتبارها قوة مادية وفكرية حاسمة في توجيه الدول والمساهمة في تقرير مصير الشعوب ، ولارتباطها بمصالح وأهداف النظام الاقتصادي العالمي وإستراتيجيته ، نصل إلى الصورة التي رسمها الأوروبيون ، منذ الحروب الصليبية .

يضم هذا البحث مدخلاً وأربعة فصول وخاتمة ، يتضمّن المدخل موجزاً بالعلاقات الثقافية والصلات التجارية ، عبر العصور اليونانية والرومانية ،

والتي لا تتجاوز رحلات بعض التجار الإغريق والرومان وبعض الرحالين إلى الشرق ، ثم تطور العلاقات التجارية ، بعد انهيار الدولة الرومانية وظهور الإسلام وازدهار الحضارة العربية ـ الإسلامية .

ونستعرض ، في الفصل الأول ، صورة الشرقي ، التي تشكّلت في ذهنيات الأوروبيين ، خلال الحروب الصليبية . وهي صورة أظهرت ، بوضوح ، العناصر الأيديولوجية ، التي طبعت آراء كثيرين من رحالي العصور الوسطى إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين ، والتي عكست الصراع ، بوصفه صراعاً بين «أعداء كفّار» و«مؤمنين مسيحيين» ، وأثر ذلك في ترسيخ الصورة العدائية ، التي استمرت ، عند البعض ، قروناً . وقد حاولنا عرض وتحليل أهم رحلات العصور الوسطى وأشهرها ، مبيّنين آراء بعض الرحالين والتجار والحجّاج ، وبعض مواقفهم وأهدافهم . وإلى ذلك ، إبراز دور الحضارة العربية ـ الإسلامية ، في ميداني الفلسفة والعلم التجريبي ، ودورها في صوغ صورة جديدة للعرب والمسلمين .

أما الفصل الثاني ، فحاولنا فيه رسم صورة العربي المسلم ، كما تشكّلت مع بدايات استعمار العالم العربي ، والتمهيد لتأسيس الاستشراق ، كمؤسسة صارت لها ، لاحقاً ، سلطة مادية وفكرية . وقد ركّزنا ، خصوصاً ، على ما بعد سيطرة إنكلترا على موانئ البحر الأحمر والخليج ، ودورها في تشجيع بعض الرحلات التجارية والبعثات العلمية والأثرية ، ولا سيما إلى مكّة والمدينة ، وما رافق ذلك من تطوّر في دراسة اللغات الشرقية ، وطبع الأعمال العلمية والفلسفية للعلماء العرب والمسلمين ، وتأسيس معاهد اللغة العربية في كل من باريس ولندن وروما وبرلين .

وتتبّعنا ، في الفصل الثالث ، الرحلات المنظّمة ، التي قامت في عصر التنوير ، ذاك العصر الذي تطلّع إلى ثقافات جديدة ولغات جديدة ، معطياً لحركة الرحلات بُعداً إيجابياً جديداً ، يواكب بُعدها الاستعماري . كذلك ،

رصدنا تأثير النزعة الرومنسية ، التي دفعت الكثيرين من الرحالين إلى الاهتمام باللغات والثقافات والحضارات «الغريبة» ، وأوجدت صورة رومنسية ساحرة للشرق ، يبقى العربي ، في معظمها ، عدواً مهزوماً ، بعد احتلال الجزيرة العربية ، واستعمار الجزائر ، وانحسار قوة تركيا ونفوذها في أوروبا .

أما في الفصل الرابع ، فتناولنا نشاط المستشرقين والأنثروبولوجيين في العالم العربي ، وارتباط بعضه بظروف عصر الأمبريالية ، في نموّه وتطوّره ، وهو ما اقتضى إعادة تقسيم العالم مناطق نفوذ ، للسيطرة على مصادر الطاقة ، ومن ثم ، دور الأنثروبولوجيين والمستشرقين في استخدام طرق البحث العلمي الحديثة ، لتوجيه شطر كبير من المعرفة والثقافة ، وفق مصالح تلك الأمبريالية وأيديولوجيّتها . وفي هذا الإطار ، إستعرضنا أهم الرحلات إلى الحجاز واليمن والعراق ، موضحين أبعاد الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى حول العالم العربي ، ثم اقتسامه بين إنكلترا وفرنسا . هذا إلى جانب تحليلنا النقدي ، لبعض خطط التنمية والتحديث ، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، كبديل للأساليب الاستعمارية التقليدية . وهذا ما أدى ، في آخر المطاف ، إلى تعميق التخلف والتبعية العربيين ، وعجز هذه الدول عن إدراك أهدافها التنموية .

أخيراً ، ليس هذا البحث مجرد قراءة نقدية لصورتنا في الذهنية الغربية ، بل هو ، في الوقت نفسه ، قراءة نقدية لصورتنا معكوسة في أذهاننا ، لمواقفنا وممارساتنا وردود أفعالنا حيال الغرب ، ومن ثم ، صورة لـ «أيديولوجيتنا» العاجزة عن فعل أي شيء .

هذه الصورة ، لا تأتي من الفراغ وحده ، فهي تعبير عن مصالح وأهداف ، وهي كذلك أفكار فاعلة . فإذا «ماتت الأيديولوجيات» في هذا العصر ، بقي أن العلم والتكنولوجيا ، في الغرب ، يشكّلان اليوم أيديولوجيا جديدة لتسلّط النظام الاقتصادي العالمي الجديد .

مدخل

كانت العلاقات الثقافية والصلات التجارية ، بين بلدان منطقتنا والغرب ، خلال العصور اليونانية والرومانية ، محدودة ، لا تتعدى رحلات بعض التجار الرومان والإغريق ، وبعض الرحالين والمغامرين إلى سواحل البحر المتوسط وشمال أفريقيا . ولهذا ، لم تكن هناك إلا أجزاء محددة صغيرة ، مما بات يعرف ، لاحقاً ، بالعالم العربي ، معروفة بصورة مباشرة ، من قبل أوروبا القديمة . واستمر ذلك حتى قيام الحروب الصليبية ، في القرن الحادي عشر ، والتي كانت البداية الجدية لاكتشاف العالم العربي . أما قبل هذا التاريخ ، فكان من مفاخر الرحّالة الطموح أو التاجر المقتدر ، أن يتمكّن من السفر إلى سوريا وفلسطين ، ليطّلع على حضارتهما ، ويتاجر ببعض بضائعهما ، أو أن يزور مصر لمشاهدة آثارها الحضارية ، التي تركها الفراعنة ، ورؤية النيل ، أو الاطّلاع على علوم المصريين وفنون حضارتهم القديمة والعظيمة[١] .

وفي التاريخ القديم ، كان هيرودوت ، المؤرّخ الإغريقي الشهير ، من أوائل الذين رحلوا إلى مصر وسوريا وبلاد الرافدين ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، فكتب عن البلدان التي زارها ، ووصف آثارها ، وبصورة خاصة مصر الفرعونية ، وبهذا قدّم لنا وصفاً إثنوغرافياً مهماً وممتعاً عن حياة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم . كما سجّل لنا بعضاً من أساطيرهم ، مبيّناً أهمية وادي النيل في حياتهم . وتبعه ديودور ، الذي رحل إلى مصر في القرن الأول قبل الميلاد ، وكتب عن أساطيرها ، ولا سيما أسطورة إيزيس وأوزوريس ، وعن النيل وفيضانه المدمّر[٢] .

وخلال الاحتلال اليوناني لسوريا وفلسطين ، بقيادة الإسكندر المقدوني ، العام ٣٣٢ ق .م . ، لم يكن لليونان والرومان اهتمام حضاري وثقافي بتلك البقعة ، ما خلا مصلحتهم في فرض السيطرة العسكرية عليها ، وبشكل مُحكم ، فضلاً عن جمع الضرائب من السكّان . وكانت الأساطيل العسكرية ، اليونانية والرومانية ، تمخر مياه البحر المتوسط لحراسة السفن التجارية ، التي تنقل البضائع ، عبره ، من موانئ أوروبا .

إذاً ، لم يكن التجار الأوروبيون ، آنذاك ، في تماس مباشر مع شعوب المنطقة وحضاراتها ، لكن في الآن نفسه ، كانت السفن اليمنية ، تمخر البحر الأحمر وما بات يُعرف ، لاحقاً ، بالمحيطين العربي والهندي ، مكوّنة نواة حلقة اتصال ، تجاري وثقافي ، مع جنوب آسيا وشرقها[٣] .

ومع انهيار الدولة الرومانية ، أمام الغزوات الشمالية والشرقية من أوروبا ، وظهور الإسلام وامتداده إلى شرق المتوسط وشمال أفريقيا ، ومن ثم الأناضول ، ومع الازدهار الحضاري الذي رافق نمو الدولة العربية ـ الإسلامية وتطوّرها ، إندفع التجار العرب إلى توسيع رقعة نشاطهم التجاري ، ما أدّى إلى سيطرتهم على موانئ المتوسط ، وفرض الأسطول العربي ـ الإسلامي سيطرته ، خلال القرن الثامن الميلادي ، على أغلب موانئه ، من دون منازع . وقد ساعد الفتح العربي لإسبانيا ، العام ٧١١ ، ووصول العرب إلى مشارف الجنوب الفرنسي ، وتوغّلهم في مقاطعات بروفانس ، على الاختلاط بتلك الشعوب والأقوام ، فأقاموا معها علاقات تجارية ثقافية حسنة . ورافق الازدهار العلمي والثقافي ، والتطور الاقتصادي في الأندلس ، نشاط تجاري واسع بين الموانئ الأوروبية وموانئ شرق المتوسط والشمال الأفريقي ، فعُقدت معاهدات تجارية ، كانت من أهمّها تلك التي عُقدت ، العام ٨٧٥ ، بين العرب وأمراء سالرن ومالفي . وقد حصل التجار في بيزا وفلورنسا ، بموجبها ، على امتيازات ، كان من شأنها تشجيع العلاقات التجارية بينهم وتوسيعها ، فأخذ

التجار الأوروبيون ينقلون الفراء والديباج والسمور والجواري إلى موانئ شرق المتوسط ، ويستبدلون بها المسك والكافور والتوابل والفخّار الصيني ، مما ينقله التجار المسلمون من جنوب آسيا وجنوب شبه الجزيرة العربية[٤] .

وخلال القرن التاسع الميلادي ، بدأت موانئ الشمال الأفريقي تتمتع بازدهار اقتصادي ملحوظ ، وبصورة خاصة بعد توسّع تجارة الذهب وازدياد أهميّتها التي بقيت ، حتى القرن الحادي عشر ، أهم الصادرات من الشمال الأفريقي إلى الموانئ الأوروبية .

فموانئ الذهب في السودان ، كوّنت مفاتيح الازدهار الاقتصادي في الشمال الأفريقي ، وكانت القوافل التجارية البرية الواسطة الأساسية لنقل الذهب ، من السودان إلى مدن الشمال الأفريقي وموانئه ، في سجلماسة وبجاية وتلمسان ، ومنها كان يصل الذهب ، بواسطة السفن التجارية الغربية ، إلى الموانئ الأوروبية في بيزا وملفي وفلورنسا[٥] .

غير أن تفكك الدولة العربية ـ الإسلامية ، في مطلع القرن الحادي عشر ، وظهور الأزمات ، الاقتصادية والسياسية والحضارية ، في ما بات يُعرف ، لاحقاً ، بالعالم العربي ، ساعدا على إحداث تغيير ، يطال ميزان القوى لمصلحة أوروبا . وهذا ما رافقه اضمحلال التجارة العربية ، وسيطرة التجارة الأوروبية على موانئ المتوسط .

منذ ذلك الحين ، أخذت الموانئ الأوروبية ، في البندقية وباري وملفي ، تبرز كمراكز تجارية مهمة ، لتحتلّ ، في وقت لاحق ، مركز الصدارة في تجارة المتوسط . ومع تطور التجارة وتوسّعها ، وازدهار المدن والموانئ الأوروبية ، بدأ عهد جديد في حركة الرحلات إلى العالم العربي واكتشافه ، على أيدي التجار الأوروبيين والحجّاج إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين . وهكذا تراجعت صورة السائح المغامر والفضولي ، لتحل محلها صورة الحاج أو

التاجر الباحث عن الربح[٦] . وبدورها عملت التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية ، التي واكبت تفكّك علاقات الإنتاج الإقطاعية ، وتفكّك الدولة العربية ـ الإسلامية وتجزئتها ، على تمهيد السبيل للحروب الصليبية ، التي تمّت أدلجتها بإكسابها الطابع الديني . إلا أن الحروب المذكورة ، مع هذا ، إتصلت ، أساساً ، بدوافع سياسية واقتصادية وثقافية توسّعية ، بهدف مدّ نفوذ الملوك والأمراء إلى الشرق ، وتقوية سلطة الكنيسة .

لقد احتلّت هذه الحروب مكانة بارزة في كتب التاريخ وأدب الرحلات ، مشكّلة انعطافة مهمة في المواجهة بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والمسيحية . وفي الحقيقة ، إن مصطلحات «الحروب الصليبية» و«الصليبيين» و«حملة الصليب» ، لم تكن معروفة عند المسلمين ، إذ لم يذكرها المؤرخون العرب والمسلمون في كتبهم ورسائلهم ، وإنما ذكروا مصطلح «الإفرنج» ، أي مجموع الدول الأوروبية المسيحية . وقد ذكر المسعودي ، في القرن العاشر الميلادي ، شعوب أوروبا وممالكها ، بوصفهم «الإفرنج» أو «الفرنجة» .

وإلى ذلك ، إنعقدت علاقات ثقافية مباشرة ، سبقت الحروب الصليبية ، بين المسلمين والغربيين ، وتأثّرت بما خلّفته الحضارة العربية ـ الإسلامية في صقلية والأندلس ، من مصادر ومنجزات في مختلف فروع المعرفة ، خصوصاً الحركة الفلسفية والعلمية التجريبية ، التي كانت أول حركة تنويرية ، قامت على أيدي المفكّرين والفلاسفة العرب والمسلمين . وكانت حصيلة تلك العلاقات الثقافية نقل كثير من الأعمال الفلسفية والعلمية إلى اللغة اللاتينية ، خصوصاً أعمال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد الفلسفية ، التي تولّى نقلها الرهبان المسيحيون ، ما أدى إلى إغناء الثقافة الأوروبية بأهم مصادر الثقافة العالمية ، آنذاك .

الصورة الأولى

الحروب الصليبية بداية جادّة لاكتشاف العالم العربي

لم يشكّل العرب والمسلمون ، بالنسبة إلى الغرب ، خطراً مهماً وكبيراً ، قبل الحروب الصليبية ، التي فجّرت الصراع العميق الأول ، بين الشرق والغرب . وقد انعكست صورة هذا الصراع بشكل مباشر تارة ، وغير مباشر تارة أخرى ، لكنها طالت المستويات والأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية جميعاً . وكان لهذه الصورة أن أظهرت العرب ، في عين بعض الغرب ، شعباً بدوياً ، غير مسيحي ، بربرياً ومتوحّشاً ، يفتتح وينهب ، في يده اليمنى السيف ، وفي اليسرى القرآن[٧] .

وهذه الصورة وتنويعاتها ، تبيّن ، بوضوح ، الأيديولوجيا التي لوّنت آراء كثيرين من رحالي العصور الوسطى إلى فلسطين . وأقدم ما خلّفه لنا الرحالون الأوروبيون من العصور الوسطى ، ما بين آثار مخطوطة أو مطبوعة ، كان مذكّرات الحجّاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة ، هناك ، وفي سوريا[٨] .

فمنذ القرن التاسع ، أخذ سيل من الأوروبيين يتدفّق إلى الأراضي المقدسة ، وهو ما استمر حتى القرن الحادي عشر ، لتتوقّف حركة الحجّاج إلى بيت المقدس ، بعد سيطرة السلاجقة على السلطة ، وتضييق الخناق عليهم . لكن سرعان ما استعادت حركة الرحلات نشاطها ثانية ، خلال الحروب الصليبية ، في مرحلتها الثالثة ، لتعود وتضعف ، بعد تحرير فلسطين ، على يد صلاح الدين الأيوبي ، واستمر ذلك حتى مطلع القرن الرابع عشر[٩] .

فالملك شارلمان ، توجّه ، في نهاية القرن الحادي عشر ، حاجاً إلى بيت المقدس ، وقد ظهر متنقلاً في مدينة القدس ، من دون أي تماسّ بينه وبين العرب . كذلك ، حجّ غودفروا دو بويون ، العام ١٠٩٩ . ويبدو أن العلاقات العامة بين العرب والأوروبيين ، أضحت أكثر تماساً بعد هذه الحقبة ، كما أصبحت ، في الوقت نفسه ، أوضح . فالإسلام بات ، حينذاك ، بُنية سياسية - أيديولوجية معادية ، وحضارة خاصة ، واقتصاداً مهمّاً . ففي العام ١١٧٠ ، ألّف غيور الصوري كتاباً ، أسماه «*تاريخ وليم في صور*» ، وذلك بناء على طلب من ملك القدس ، آنذاك ، أموري ، حيث كتب عن الصراع بين السنّة والشيعة ، والاختلافات بين العرب والأتراك . وقد أبرز الكتاب ، بشكل واضح ، الخصومات السياسية والصراعات الحادّة بين أمراء المسلمين[١٠] .

لقد اهتمت أغلب رحلات العصور الوسطى ، في الواقع ، بوصف الحروب الصليبية وصراعات المسلمين والمسيحيين ، باعتبارها صراعات بين أعداء كفّار ومؤمنين مسيحيين . غير أن فريديرك بربروزا الأول ، كان ، في أواخر القرن الثاني عشر ، أول من خرج على هذا الإطار التقليدي الضيّق ، كما كان أول رحّالة أوروبي ، يدخل عالم الصحراء العربية ، خلال الحروب الصليبية ، فعاش بين البدو ، وأقام معهم علاقات وديّة طيّبة . ومع بضعة استثناءات ، يبقى أن من أهم خصائص الحروب الصليبية ، أنها لم تؤدّ إلى علاقات سلمية مع أبناء المنطقة ، بل ظلت العلاقات متوتّرة دوماً . فالفلاحون العرب المسلمون ، وكذلك العرب المسيحيون من السريان ، أُستُغلّوا استغلالاً بشعاً ، من قبل الصليبيين ، ما آثار كراهيتهم لهم ، دافعاً أحد مؤرخي الحروب الصليبية إلى القول ، إن سكان المنطقة من السرسانن[١١] «كانوا يثيرون الأذى مثل الطاعون» ، وكان ينعتهم بـ «الأعداء»[١٢] . غير أن محارباً صليبياً ، في إيطاليا ، كتب عن إعجابه الشديد بالسرسانن ، حيث قال : «سأقول الحقيقة ، ولن يجرؤ أحد على استبعادها . . . لو أنهم فقط حافظوا على إيمان

المسيح . . . لما وجدنا أحداً يمكن أن يعادلهم في القوة والشجاعة وعلم الحرب»[١٣] .

إن ما كتبه الرحالون والحجّاج والتجّار ، الذين زاروا سوريا وفلسطين ، على شكل رحلات ومذكرات ورسائل ، وما جمعوه من معلومات إثنوغرافية متفاوتة الدقة حول العالم العربي ، دينياً واقتصادياً وسياسياً ، كان له أبلغ الأثر في إثارة التعصّب في أوروبا ضد العرب والمسلمين ، وإثارة النعرات والغيرة على الأراضي المقدسة ، من أن «تعبث بها الأيدي المعادية للمسيحية»[١٤] . كما كان سبباً مباشراً في دفع الأوروبيين إلى القيام بحروبهم الصليبية .

كان أهم رحلات العصور الوسطى وأشهرها ، ما قام به رجل الدين المسيحي فون أولدنبرغ ، العام ١٢١١ ، والذي أرسل على رأس بعثة ديبلوماسية ، من قبل الأمبراطور الألماني ، أوتو الرابع ، إلى ملك القدس الأرمني ، ليو ، في خصوص وراثة عرش القدس . ووصف أولدنبرغ ، في تقريره الذي رفعه إلى أوتو الرابع ، مدن سوريا وفلسطين ، وخاصة المدن المقدسة ، مبدياً اهتماماً مميزاً بالشؤون السياسية والتحصينات العسكرية وجغرافية سوريا ، مع شيء من التفصيل في وصف «قلعة الصليبيين» وتحصيناتها ، من جهتي البر والبحر . كذلك ، وصف ، بدقة وبراعة ، أحد قصور بيروت الفخمة ، المبلّط بالمرمر والرخام المصقول الناصع ، وجدرانه المميزة بالرسوم الجميلة والألوان الرائعة ، وحدائقه الواسعة الفناء ، التي تتوسّطها نوافير الماء . وإلى ذلك ، أبدى أولدنبرغ قلقه واستياءه الشديدين ، لأن مدينة القدس ، تقع تحت سيطرة المسلمين ، ولم يخف شعوره بالخضوع والمذلّة تجاه هذه الوضعية ، على الرغم من إشارته إلى تسامح العرب والمسلمين ، وسماحهم للزوّار والحجّاج الأوروبيين بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المقدّسة الأخرى ، في صحبة مندوب من السلطان[١٥] .

ويمكن لهذه الرحلة ، أن تكون نموذجاً لكثير من الرحلات ، التي قام بها الحجّاج والرحالون الأوروبيون إلى الأراضي المقدّسة ، خلال الحروب الصليبية وبعدها . لكن يبقى من أطرف رحلات بداية القرن الرابع عشر ، بعد تدفّق الحجّاج ، مجدداً ، إلى الأراضي المقدسة ، ما قام به وليم فون بولندزيله ، العام ١٣٣٢ ، الذي رحل من إيطاليا ، ماراً بآسيا الصغرى ، ومنها سافر ، بحراً ، حتى وصل إلى صيدا ، ولما تزامن ذلك مع عيد ميلاد السيد المسيح ، فقد أدى مراسم الحج هناك . ومن صيدا ، رحل إلى مصر ، عبر غزة ، حيث استأجر جملاً ، ورافق قافلة ، عبرت به صحراء سيناء ، وصولاً إلى القاهرة . وقد أدهشته الأخيرة ، بما فيها من آثار إسلامية عظيمة ، كما تعرّف فيها بآثار مصر الفرعونية ، فأشاد بتاريخها القديم ، وأهراماتها المدهشة ، ونيلها العظيم . وخلال إقامته في القاهرة ، إستطاع بولندزيله مقابلة السلطان محمد قلاوون ، الذي أسبغ عليه حمايته ، وسلّمه فرماناً ، هو «رخصة» ، يُسمح له ، بموجبها ، بزيارة الأراضي المقدسة ، كما يُعفى من الضرائب المترتّبة عليه . وقد استطاع بولندزيله ، أن «يتنقّل ، مع حاشيته ، في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، بأمان واطمئنان ، أكثر مما في بلاد النصرانية» ، على حد قوله . وفي طريق عودته إلى فلسطين ، من القاهرة ، التي أقام فيها طويلاً ، إستحوذ على اهتمامه بدو الصحراء في سيناء ، فوصفهم بأنهم قوم رحّل ، يقطنون الخيام ، ويحملون الرماح والسيوف ، ويمتطون الجمال ، «ولا يعبأون كثيراً لا بالسلطان ، ولا بتوقيعه» . كما أشار إلى كثرة عددهم ، هناك ، وإلى قوتهم ، إذ «في وسع البدو ، إذا ما اتّحدوا ، أن يحتلّوا مصر وسوريا معاً» .

وعند وصوله إلى دمشق ، أعجبته المدينة وجمالها ، وأدهشه نشاطها التجاري ، وحركتها الدائبة وكثرة سكّانها . كذلك وصف القوافل التجارية الكبيرة ، المحمّلة بأنواع البضائع القادمة من بغداد والهند ، وبراعة الصنّاع ودقّة الحرف اليدوية ، ومهارة الأطبّاء العرب . ومن دمشق ، واصل بولندزيله سفره إلَى بيروت ، ومنها إلى بلاده إيطاليا ، عبر البحر المتوسط[١٦] .

لقد أثارت رحلة بولندزيله اهتماماً كبيراً في أوروبا ، ما دفع لودفيغ فون زودهايم إلى قضاء خمسة أعوام متتالية في فلسطين ، زار خلالها بيت المقدس ، العام ١٣٣٦ . وقد طُبعت رحلته باللغة اللاتينية ، العام ١٤٦٨ ، ثم تُرجمت بالألمانية ، لاحقاً .

وفي ١٤٨٣ ، نُظّمت بعثة ألمانية ، برئاسة رجل دين من مدينة ماينز ، يدعى برنارد فون برايدنباخ ، لزيارة الأراضي المقدسة في فلسطين ، تكفيراً عن الذنوب ، وزيارة شبه جزيرة سيناء ، مستعيناً ، هو وبعثته ، بإحدى القوافل التجارية ، المتوجّهة إلى جنوب سيناء ، والتي أوصلتهم إلى دير كاترينا . وقد جاء في وصف برايدنباخ للعرب ، أنهم «وثنيون» . وقدّم نصيحة إلى الحجّاج الأوروبيين ، الذين يتوجّهون إلى الأراضي المقدسة ، بأن «يكونوا مسالمين مع العرب ، وإلا فسوف يلاقون السباب والإهانات»[١٧] . وقد صدرت رحلة برايدنباخ باللاتينية ، العام ١٤٨٦ ، واجتاحت شهرتها جميع أنحاء أوروبا ، حينذاك[١٨] .

وفي ١٤٨٠ ، رحل فيلكس فابر ، في رفقة أحد النبلاء من جنوب ألمانيا ، لزيارة الأراضي المقدسة ، وقد نزل ، مثل برايدنباخ ، في دير كاترينا ، في سيناء . وفي رحلته ، ورد وصف لبدو الصحراء ، هناك ، على النحو الآتي :

> وما كان يجمعه النسّاك وأهل الدير ، كان يذهب للوثنيين الكفّار . ففي كل يوم يأتي ثمانون إلى مئة منهم ، ليأخذوا الخبز والخضار . وعندما نزلنا الدير كان ممتلئاً بالوثنيين ذوي الأخلاق المتعجرفة . وحين لا يقدّم لهم النسّاك ما عندهم ، فإن ثورة في الدير قد تحدث للتوّ . وفي هذه السنة ، كان العرب قد أخرجوا النسّاك من الدير عن بكرة أبيهم[١٩] .

وهذا الموقف ، الذي اتخذه فابر ، يشبه ، إلى حد بعيد ، آراء عدد آخر من رحالي العصور الوسطى إلى الأراضي المقدسة . فحتى لو افترضنا ، أن

الأعمال المنسوبة إلى بدو الصحراء ، هي صحيحة ، وقد تسوغها ظروف الصحراء القاسية ، فإن كلامه يعكس نظرة الاحتقار نحو العرب ، خصوصاً أنه لم يميّز عرب الصحراء (البدو) عن عرب المدن (الحضر) ، معتبراً المسلمين وثنيين وكفّاراً ، غير آبه بحضارتهم ودينهم .

ولئن كانت الأحكام المسبقة ، التي أطلقتها أيديولوجية الحروب الصليبية ، حاجزاً قوياً ، أمام أي فهم موضوعي للعرب والمسلمين ، فإن رحلات العصور الوسطى تلك ، خلت من الخيال الرومنسي ، الذي طبع البعض القليل من رحلات الأوروبيين المتأخرة . غير أن لورانس روفولف ، وهو دكتور في الصيدلة ، تخرّج في كلية أوكسبورغ ، بدا متحرراً ، نسبياً ، من قيود الكنيسة وأيديولوجيتها ، وكان أول رحالة ، إستطاع العيش بين بدو الصحراء ، وشاركهم في حياتهم الخشنة ، كما كتب عن عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم بطريقة موضوعية ، واصفاً خيامهم ومواشيهم ، وترحالهم من مكان إلى آخر ، وراء العشب والماء ، وصفاً دقيقاً . كذلك ، قدّم لنا روفولف وصفاً ممتعاً للهودج ، الذي تركبه نساء البادية ، عند التنقّل والترحال ، فضلاً عن أزياء النساء وحلي الأطفال[٢٠] .

إلى هذا ، أشار روفولف إلى جانب مهم في حياة البدو الاقتصادية ، وهو أنهم يحتقرون المهن الزراعية ، ويتمنّون الموت على العمل الحرفي بأيديهم ، على الرغم من أن مداخيلهم السنوية زهيدة جداً ، وعليهم أن يَحصلوا على ما يحتاجون إليه من جيرانهم ، في مناطق أخرى . وبيّن أيضاً أنهم ينظرون إلى الفلاحين نظرة احتقار ومهانة ، معتبرينهم أدنى منهم منزلة . والحق أن الآراء ، التي جاء بها روفولف ، حول نمط العيش البدوي ، هي حكيمة وصائبة ، تعبّر عن إحدى سمات الشخصية البدوية ، التي لا تزال قائمة حتى اليوم . فالبدوي يعتبر الحرفة ، أو المهنة ، «مهانة» ، لأنه لا يحصل على قوت يومه بعمل يده وعرق جبينه ، بل بقوة السيف .

لقد بدأت رحلة روفولف في ١٨ آذار/ مارس ١٥٧٣ ، من طريق البحر ، فركب باخرة من إيطاليا متوجّهاً إلى طرابلس ، ومن هناك ، سافر في رفقة قافلة جمال إلى أعالي الفرات ، حيث قضى وقتاً قصيراً في دير الزور ، ومنها سافَر إلى بغداد ، من طريق الفلّوجة ، ثم إلى بابل ، ليطّلع على آثار السومريين والأكديين . وفي طريق عودته إلى طرابلس ، أخذ روفولف طريق الشمال ، فزار كركوك وأربيل ، ثم الموصل فطرابلس . وفي هذه الأخيرة ، أُتّهم بالتجسس ، فاضطر إلى الاختفاء في القنصلية الفرنسية ، مدة ثلاثة أشهر . وكان زميل له ، يُدعى أورلش كرافت ، قد أُتّهم ، من قبل الحكومة العثمانية ، بالتجسس كذلك ، وسجن مدة ثلاث سنوات . ونتيجة لعلاقاته الشخصية الجيدة ، إستطاع العمل في لبنان ، كطبيب ، بواسطة أحد القسيسين الموارنة ، الذي فتح له طريق المجتمع الدرزي ، والتعرف ببعض عقائد الدروز وعلاقاتهم الاجتماعية . فضلاً عن عقائد الموارنة وتقاليدهم . وفي ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٥٧٥ ، سافر إلى القدس ويافا ، محاولاً التوسّط للحصول على رخصة لإطلاق زميله أورلش كرافت . ثم عاد إلى طرابلس ، ومنها إلى البندقية ، التي وصلها في ١٥ شباط/ فبراير ١٥٧٦ . وبعد ست سنوات على ذلك ، صدرت رحلته باللاتينية ، فلاقت رواجاً وتُرجمت بلغات أوروبية عدة[٢١] .

لقد اصطدم روفولف مع رجال الكنيسة ، في أكسبورغ ، لدى صدور الطبعة الأولى من رحلته ، كما اصطدم ببلدية أكسبورغ ، بسبب موقفه الودي من العرب والمسلمين ، فكان إصراره على موقفه سبباً للطرد من وظيفته . والحق أن روفولف ، كان أول رحّالة وحاج كاثوليكي متنوّر ، يقف من العرب والمسلمين موقفاً غير متعصّب ، وغير عدائي ، كي لا نصفه بالتسامح الكريم ، الذي حمل البعض على اعتباره «شوكة في العيون»[٢٢] .

إلى ذلك ، كانت رحلة روفولف أول رحلة إثنوغرافية ، تم خلالها جمع معلومات إثنولوجية مهمة عن الشرقيين وحياتهم الاجتماعية والدينية ، وعن

حياة البدو وشيوخهم ، حتى إنه أطلق على رؤساء القبائل العربية لقب «ملوك العرب»[٢٣] . واعتُبر ما كتبه في الاقتصاد البدوي ، خصوصاً في العناصر المادية من حضارتهم ، إبّان النصف الثاني من القرن السادس عشر ، من الإضافات الإثنوغرافية والإثنولوجية المهمّة ، في نطاق الأنثروبولوجية وبحوثها . وقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة صحّة الكثير مما جمعه ودقّة معلوماته . وبذلك كله ، إحتل روفولف مكاناً بارزاً في أنثروبولوجيا المجتمعات البدوية .

مع هذا ، ظلت صورة العربي السيّئة مطبوعة في أذهان بعض الأوروبيين زمناً طويلاً . وتظهر هذه الصورة عند سوذرن ، الذي كتب عن الإسلام ، متأثراً بمصادر تاريخية غير علمية وغير موضوعية ، واعتمد على «الرأي الشعبي» ، الذي يعكس ، في الحقيقة ، الأيديولوجيا العامّة ، التي تشكّل الصورة السائدة ، يومذاك ، والمشوّهة ، لجهة إضرامها روح الحقد على المسلمين . فلقد صوّر سوذرن النبي محمداً «ساحراً ، دمّر الكنيسة في أفريقيا والشرق ، بالسحر والخداع ، وبإباحته الاختلاط الجنسي العام» . كذلك ، وضع شتركر ، في القرن الثالث عشر ، كتاباً عن «كارل الكبير» ، عزا فيه كل ما في الجاهلية إلى محمد ، بما في ذلك عبادة الأصنام والشعر الجاهلي . فالمسلمون ، في رأيه ، مشركون ، معبودهم الرئيسي محمد ، الذي تُصنع تماثيله من مادة غنية وضخمة ، فيما تصل أسماؤه إلى سبعمائة[٢٤] .

ويرى رودنسون أن الحضارة العربية ـ الإسلامية ، كانت قد فتحت باباً جديداً ، منذ القرن الحادي عشر ، لميدان لا يرتبط بالدين بصورة مباشرة ، غير أنه يمسّه على نحو غير مباشر ، وهو ميدان الفلسفة والعلوم التجريبية ، التي أخذت ، شيئاً فشيئاً ، تغيّر صورة العربي والمسلم ، خصوصاً بعد أن تعرّف الغرب بالعلماء العرب والمسلمين ، كما تمّت ترجمة أمّهات الكتب في الفلسفة

والطب والفلك والرياضيات ، لا سيما بعد فتح طليطلة في ١٠٨٥ ، والتي أضحت مركزاً علمياً وثقافياً .

هكذا اندفع سلفستر الثاني إلى القيام بأولى المحاولات لترجمة المؤلّفات العربية باللاتينية ونشرها . وكان دو ألفونسو ، وهو طبيب إسباني يهودي ، يعمل لدى ملك إنلكترا ، هنري الأول ، أول من ترجم مؤلّفات العرب في علم الفلك باللاتينية ، في العام ١١٥٦ ، وأول من قدّم معطيات علمية عن العرب والمسلمين . أما بيار الوقور (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) ، فامتلك فضولاً كبيراً لمعرفة الإسلام ، كما بذل جهداً كبيراً للتعريف الموضوعي به . وكان من دوافعه اكتساب معرفة مباشرة بالإسلام ، لمواجهة ما اعتبره المسيحيون ، يومذاك ، هرطقة يهودية وإسلامية معاً ، فضلاً عن السعي إلى تجنّب الأخطار ، التي تحيق بالكنيسةوالانشقاقات التي تهدّدها ، من طريق تسليحها بأسلحة نظرية متينة[٢٥] .

في الوقت نفسه ، بدأ الاهتمام بترجمة القرآن ، المهمّة التي تحقّقت عبر طليطلة ، باعتبارها مركزاً للثقافة والعلوم ، وجسراً يربط الحضارة العربية ـ الإسلامية بأوروبا ، فضلاً عن أن أغلب علمائها مزدوجو اللغة[٢٦] .

أما في ميدان الفلسفة ، فشرعت تظهر ، وللمرة الأولى ، صورة مضادة لتلك التي سبق إدراجها في الإطار الديني ، إذ أصبحت الأخيرة ملحقاً تابعاً للعلم ، من أجل إكمال معرفة الغرب بأرسطو ؛ ولم يكن الغرب قد تعرّف بعد ، من أعمال «المعلّم الأول» ، إلا بكتابيه «*المقولات*» و«*التأويل*» . غير أنه ، وبفضل العلماء العرب وترجماتهم المباشرة للأصل اليوناني ، أصبحت أعماله في متناول الغربيين . وكان جيرار كريمونا (١١٤٤ ـ ١١٨٧) ، قد ذهب إلى طليطلة ، بحثاً عن الترجمات العربية لأعمال أرسطو ، وفي الوقت نفسه (١١٨٠) ، صدر كتاب «*الشفاء*»لابن سينا ، الذي يُعدّ موسوعة طبية فلسفية

كبرى ، أثارت اهتمام كثيرين من المفكّرين ؛ لأنه قدّم فيه نموذجاً تركيبياً جامعاً للعلم والإنسان .

ولم يمرّ قرن من الزمن ، حتى ظهر روجير بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) ، الذي اعتُبر من أهم العلماء ، الذين أرسوا دعائم التفكير العلمي في أوروبا ، بدعوته إلى استخدام الملاحظة العلمية والتجربة ، من طريق افتراض الفرضيات وسيلة إلى الحقائق العلمية . وقد أعلن بيكون لأوروبا ، أن تجديد الفلسفة كان قد تم ، أساساً ، على يد أرسطو ، منقولاً إلى اللاتينية ، ثم على يد ابن سينا بالعربية . وبهذا ، أضحت كلمة «فيلسوف» مرادفة لكلمة «مسلم»[٢٧] .

وإلى ذلك ، كان روبير دي كيتو أول من أتمّ ترجمة القرآن ، في ١١٤٣[٢٨] . غير أن رداءة الترجمة ، وعدم تنظيمها ، وإهمال عناوين السّور ، حالت ، على ما يبدو ، دون تنفيذ طبعها ، كما أوضحت ، يومذاك ، رسالة بطرس المحترم إلى القدّيس برنار[٢٩] . والحق أن المصادر ، إختلفت في صدد مترجم هذه النسخة من القرآن .

ففي ١٤١١ ، سافر بيتر فون كلوني إلى إسبانيا ، مبعوثاً في مهمّة رسميّة ، للتوسّط في عقد سلم بين ألفونس السابع ، نبيل كاستيليه ، وألفونس الأول ، نبيل أراغون . ويبدو أن الرحلة ، كانت مناسبة جيدة له ، كي يتعرّف بالخلافات الدائرة بين الموحّدين والإسبان . وقد اقتنع كلوني بأن «محاربة العرب ، لا يمكن أن تتم بقوة السلاح العمياء وحدها ، وإنما بقوة الكلمة وبواسطة أساليب عاقلة ، في مقدّمها حب المسيح» . كما افترض ، مسبقاً ، ضرورة معرفة العدو معرفة جيدة . وهكذا بدأ كلوني بوضع مخطّط لترجمة القرآن باللاتينية .

كذلك ، أشار المستشرق الألماني ، فوك ، إلى أن كلوني تعرّف باثنين من رجال الدين الإنكليز ، كانا يعرفان العربية ، ويشتغلان بالرياضيات وعلوم

الفلك العربية ، وعداه بترجمة القرآن ، مقابل مبالغ مالية وفيرة[٣٠] . ويبدو أن الترجمة ، التي أعدّها هذان ، كانت قد أرسلت إلى رئيس أساقفة روما ، فون بيرنهارد في ١١٤٣ ، غير أنها لم تُطبع ، ولم تظهر إلى الوجود ، إلا بعد أربعمائة سنة بالضبط ، وكانت تلك ترجمة كلوني ، الذي بات يُدعى بطرس المحترم . وقد اعتُبرت أول ترجمة كاملة للقرآن باللغة اللاتينية . وقد أشار بعض المصادر إلى أن هذه الترجمة ، كان من المفترض أن تظهر في البندقية العام ١٥٣٠ ، أي قبل ١٣ سنة على التاريخ الذي ظهرت فيه ، لكن الأمر أغضب البابا ألكسندر السابع ، الذي أمر بإحراق النسخ جميعاً .

وهناك محاولة أخرى لترجمة القرآن ، فشلت أيضاً ، وهي ترجمة مارك الطليطلي ، التي تمّت في ١٢١٠ ، والتي كانت سبقتها بستين عاماً ترجمة روبير دو كيتو ، التي حملت اسم «*الفرقان*» . وبدوره ، إعتبر الطليطلي أن القرآن هو كتاب الإسماعيلية ، كما ذيّله بترجمة لكتاب بالمهدي بن تومرت ، وملخّص لسيرة الرسول ، بيد أن هذه الترجمة ، ظلّت طي النسيان ؛ إذ لم تُطبع[٣١] .

وفي ١٥٤٧ ، صدرت ترجمة إيطالية ، باسم «*القرآن المحمدي*» ، قام بطبعها أريفابن ، ثم ترجمها سالمون شفايغر بالألمانية ، العام ١٦١٦ ، وظهرت بعنوان «*القرآن المحمدي . هذا هو القرآن الذكي*» . أما أفضل ترجمة إيطالية ، فصدرت ، العام ١٦٩٨ ، من قِبل مراْشّي ، فتفوّقت على جميع سابقاتها[٣٢] .

لقد سبق لهذا التوجّه نحو الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية ، أن دفع فريدريك الثاني (١١٩٤ ـ ١٢٥٠) ، الذي درس اللغة العربية ، وناقش بها بعض القضايا الفلسفية والعلمية مع مسلمين ، وتأثّر بالعادات والتقاليد الإسلامية ، إلى إقامة «مستوطنة عربية» ، في مدينة لوشير الإيطالية ، وجعلها في خدمة الإسلام ، كما أقام فيها مسجداً ، وحرص ، في ذلك ، على الأجواء

الشرقية . وقد عقد فريدريك الثاني صلحاً مع المسلمين ، في القدس ، العام ١٢٩٩ . كما اتّهمه البابا ، غريغور التاسع ، بالتظاهر بصداقة العرب والمسلمين ، فضلاً عن عيوب أخرى . ونُسب إلى فريدريك الثاني ، ذات مرة ، أنه قال إن العالم خدعة دجّالين ثلاثة ، هم موسى وعيسى ومحمد ، الأمر الذي أنكره ، مدافعاً عن نفسه .

وكان لإعجاب الغرب بإنسانية صلاح الدين الأيوبي وفروسيّته ، أن كوّنتا ، في القرن الرابع عشر ، صورة معاكسة لصورة ريتشارد قلب الأسد . وقد أحيطت شخصية صلاح الدين بأساطير أوروبية كثيرة ، كرحلته الوهميّة إلى أوروبا ، ووقوع ملكة فرنسا ، زوجة الملك فيليب ، في حبّه ، وهي التي قالت فيه مرة : «إن فارساً في هذا الكمال ، يجب أن يلتحق بالمسيحية» . كذلك نسبوا إليه ، أنه فتن ألينور ، سيدة أكيتانا ، بحبّه ، كما سمّوا أولادهم باسمه في فرنسا[٣٣] .

هذه الصورة ، ظهرت أيضاً ، عند فولفرام إيشنباخ (١١٧٠ ـ ١٢٢٠) ، الذي عارض ، في كتابه «*وليم*» ، أغنية فرنسية ، عن فتح أورانج ، إذ يقول : «إن الفرنج والسرسانن متساوون في فضائل الفروسية ، وإن أورابل ، المرأة المسلمة الحسناء ، التي أصبحت مسيحية ، تُطلق نداء للتسامح» ، ثم يضيف : «أليس من الخطيئة ، أن نضرب أناساً ، كأنهم بهائم ، لم يسمعوا ، يوماً من الأيام ، حديثاً عن المسيحية؟ بل أقول إنها خطيئة كبرى ، فكل البشر ، الذين يتكلّمون الاثنتين والسبعين لغة هم مخلوقات الله» .

كذلك تحدثت أسطورة بارسيفال عن شخص يُدعى فولفرام ، واسم والده «جمهوريت» ، وقد توجّه فولفرام إلى الشرق ، ليس في إطار الحملة الصليبية ، إنما كي يضع نفسه في خدمة «باروك بلداغ» ، أي «مبارك بغداد» . وعندما يموت فولفرام يُدفن في عاصمة الإسلام آنذاك ، فيبكيه السرسانن[٣٤] .

هذه الأسطورة ، إنما عكست رأياً «مسيحياً جيداً» وطيباً ، يدعو إلى تغييب الحقد في العلاقة مع «الوثنيين» (المسلمين) ، لأنهم ، في عُرف أصحابها ، لم يتعرّفوا بالسيد المسيح . غير أن قيام السلطنة العثمانية ، وتعاظم قوتها العسكرية ، في القرن الخامس العاشر ، أيقظا الاهتمام بالإسلام من جديد ، وزادا في حماسة الدوائر اللاهوتية ونشاطها . وكان أسقف شالون ، في فرنسا (١٤٠٠ ـ ١٤٦١) ، وهو من أنصار الروح العسكرية الصليبية ، نال موافقة البابا ، دوكوزا (١٤٤٠ ـ ١٤٦١) على تحقيق خططه العلمية ، فأصدر كتاباً تاريخياً لغوياً ، حول القرآن ، في ١٤٦٠ ، حيث وجّه الأنظار إلى خطر الأتراك ، الذي يتعدّى الجانب المعتقدي ، إلى الجوانب العسكرية والثقافية . وفي ١٥٦١ ، أعلن هنري الثامن ، أن الدولة العثمانية قوة أوروبية ، مثل غيرها من الدول . ومعنى ذلك أن الإسلام ، لم يعد يشكّل خطراً ، كما كانت الحال ، لأن العرب ، بدأوا يختفون من الخريطة السياسية ، فيما أخذ الأوروبيون يماثلون الإسلام ، عملياً ، بالأتراك . ولئن أضحت كلمة «ترك» ، مذّاك مرادفة لكلمة «مسلم» ، فمذّاك أيضاً ، بدأ انحياز أوروبا إلى إيران ، لأنها تقف ضد التوسّع العثماني[٣٥] .

إلا أن الصورة الجديدة للعالم العربي ـ الإسلامي ، كأحد مهود الفلسفة والعلم التجريبي ، ظلت تتناقض مع الصورة القديمة ، التي لا تزال عالقة في أذهان كثيرين من الأوروبيين ، وهي صورة الإسلام كبنية دينية ـ سياسية ، تحكمها أيديولوجيا ضالّة ومعادية .

ومع ضعف الأيديولوجيا المسيحية ، بظهور حركات الإصلاح الديني ، بقيادة لوثر وكالفن ، وصعود الدول القومية ، إزدادت حدّة الخلافات والصراعات الداخلية ، التي ساعدت على نمو أيديولوجيا بديلة ما قبل رأسمالية ، عملت ، بدورها ، على استئناف شكل النزاع الأوروبي مع العالم غير الأوروبي .

الصورة الثانية

عصر النهضة: بدايات الاستيطان و... الاستشراق

مع تفكّك وانحطاط علاقات الإنتاج القديمة ، التي سادت أوروبا زمن الإقطاع ، حدثت تغيّرات مهمة ، وعميقة الأثر في الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية عموماً . وقد سارت هذه التطوّرات ، جنباً إلى جنب ، مع حركة نمو المدن والاكتشافات الجغرافية ، والتوسّع الاستعماري ، وتطوّر التجارة والصناعة الحرّة . وبدورها ، ساعدت هذه التطورات على نمو طبقة جديدة من التجار وأصحاب المصانع ، التي قادت أوروبا إلى نهضة اقتصادية وسياسية وعلمية ، تحوّلت السلطة ، بموجبها ، من الأمراء والنبلاء الإقطاعيين ، إلى الطبقة الوسطى الجديدة الصاعدة ، التي أسميت ، لاحقاً ، بالبورجوازية . ومقابل ذلك ، نمت طبقة أخرى من العمّال ، التي حلّت ، بالتدريج ، محل طبقة الأقنان القديمة في النظام الإقطاعي .

لقد ساعدت الحروب الصليبية ، إلى جانب عوامل أخرى ، على نمو النظام الرأسمالي ، بعد نمو العلاقات التجارية بين الشرق الغرب ، وفتح أسواق جديدة لتصدير البضائع إليها والحصول على المواد الأولية منها ، كالمنسوجات والتوابل . والمعروف أن الأوروبيين ، برّروا قيامهم بالحروب الصليبية واستيلاءهم على الأراضي المقدّسة في فلسطين ، بحمايتها من أيدي الكفّار والبرابرة السرسانيين .

كذلك ، إعتمدت الطبقة الوسطى الصاعدة على وسائل وأساليب جديدة ، في التجارة والصناعة ، وبناء السفن ، وتأسيس المصارف ، وتطوير التجارة

الخارجية وطرقها . وكانت إيطاليا البلد الأول ، الذي نشأت فيه بدايات الرأسمالية ، إبان القرن السادس عشر ، وخصوصاً في موانئها ، كالبندقية ، التي عرفت المصارف والمراكز التجارية ، للمرة الأولى ، وجنوى ، التي تجمّعت فيها رؤوس الأموال المستخدمة في التجارة الخارجية .

وكان من نتائج هذه التحوّلات انطلاق حركة الاكتشافات الجغرافية ، من البرتغال وأسبانيا ، لغزو العالم ، ووضع اليد على ثرواته ، ولا سيما الذهب والمواد الثمينة . وساعد البرتغاليين على ذلك موقعهم الجغرافي المتميّز ، فاتجهوا إلى ما وراء المحيط الأطلسي ، حيث بدأوا غزوهم العسكري لبلاد المغرب العربي ، من أجل الوصول إلى باقي العالم العربي ، والسيطرة على طريق التوابل ، في جنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، خصوصاً السيطرة على مناجم الذهب في السودان ، وطريق الحرير ، الذي يربط الشرق الأقصى بأوروبا ، مروراً بالمحيط الهندي .

أما أسبانيا ، فتمكّنت ، منذ اكتشاف كريستوف كولومبوس للعالم الجديد ، والذي كان هدفه الأساسي الوصول إلى الهند ، من السيطرة ، في فترة قصيرة ، على البيرو والمكسيك ، اللتين كانتا تضمان أغنى مناجم الذهب ، حينذاك ، كما استثمر الأسبان الأراضي الواسعة للبلدين الأميركيين في الزراعة ، ولا سيما قصب السكر . إلا أن السيطرة الاقتصادية والعسكرية لأسبانيا والبرتغال ، لم تدم طويلاً ، إذ عملت منافسة إنكلترا وفرنسا لهما على إضعافها . وبذلك احتل الإنكليز والفرنسيون مواقعهم ، فتم تأسيس شركتي الهند ، الشرقية والغربية ، اللتين احتكرتا تجارة الشرق الخارجية ، وما لبثتا أن أعطتا نفسيهما خصائص الدول ذات السيادة .

لقد ساعد الازدهار الاقتصادي لأوروبا ، الناتج من علاقات غير متكافئة مع الخارج ، ومن ثم من وفرة الأرباح وتزايد العمليات التجارية ، على توسيع فعاليات المصارف والأسواق المالية ، فيما تداخلت رؤوس الأموال ،

وتشابكت . كذلك ، ساعد تطور وسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية ، وازدياد التخصص ، وتقسيم العمل ، على تسريع دورات رأس المال ، وتراكم الثروة في أيادي قلّة ، وبهذا كله ، تشكّل النظام الرأسمالي ، وانطلق .

أما على المستوى الثقافي ، ففرز الصراع بين العلم والكنيسة حركة تحرر ، تدريجية ، من سلطة الأخيرة وأفكارها الكهنوتية . وقد بدأ هذا مع وضع آراء أرسطو ومنطقه الشكلي موضع النقد والتجريح ، بعد أن كان المخالف لآراء الكنيسة ومنطق أرسطو ، يُعتبر زنديقاً كافراً . كذلك ، بدأ العلماء بتحكيم العقل في ما يعرض من مسائل ، آخذين بالنظر إلى الأمور نظرة أكثر واقعية وموضوعية . وكانت النتيجة انفصال العلم والمعرفة عن الكنيسة ، واستطراداً ، إنقلاب النظرة التشاؤمية ، التي طبعت التفكير الاجتماعي والسياسي في العصور الوسطى ، نظرة تفاؤلية . وهكذا ، إزدهرت الحياة العقلية والفكرية ، فيما تطوّرت العلوم والفنون والآداب ، وكوّنت بداية لما بات يُعرف بعصر النهضة .

وبدورها ، وسّعت الحركة النهضوية حركة التجارة وامتدادها إلى ما وراء البحار ، وكان التجار الأوروبيون ، الذين جابوا المحيطات والقارات ، قد وصلوا إلى شبه الجزيرة العربية ، المغلقة أمامهم حتى ذلك الحين ، علماً أن هدفهم الأساسي هو السيطرة على «طريق الحرير» . فهذا الأخير ، إنما كان أحد أهم الطرق التجارية البرية القديمة ، لربطه الشرق بالغرب : فالقوافل التجارية ، القادمة من أقصى الشرق ، كانت تمر بسمرقند وبخارى وإيران والعراق ، ومن العراق كانت تتجه نحو سواحل المتوسط ، من جهة ، وسواحل الخليج وجنوب شبه الجزيرة ، من جهة أخرى . كذلك ، فمن جنوب شبه الجزيرة ، كانت القوافل تتجه نحو المتوسط ، عبر البحر الأحمر ، فتمرّ بالإسكندرية ، أو ببيروت وطرابلس وأنطاكية ، حيث المراكز التجارية الكبرى ، التي تتعامل ، أساساً ، ببضائع البندقية واليمن والصين . ذلك أن البندقية ، تحديداً ، لعبت

إبّان فترة نشوء الرأسمالية ، دوراً مهماً ، باعتبارها مركزاً تجارياً ومالياً نشطاً ، وحلقة وصل في تجارة الشرق مع الغرب .

ومع حركة الاكتشافات الجغرافية ، التي قادتها أسبانيا والبرتغال ، سعت إنكلترا ، وكذلك هولندا ، إلى البحث عن أسواق وطرق تجارية جديدة ، لتأمين حاجاتهما من المواد الأوليّة ، وتصريف سلعهما . واجتمعت هذه العناصر كلها لتطوّر التجارة وطرق النقل ، البرية منها والبحرية ، ثم تزايدت أهميتها مع تشكيل المؤسسات الاقتصادية والقواعد العسكرية ، خارج حدودها التقليدية .

هكذا ، شكّل الخليج ، ولفترة طويلة ، ما هو أكثر من مجرد هدف استعماري . فقد كان طريقاً بحرياً حيوياً ، ومنطقة مُربحة ، سعت البرتغال إلى ضمان الإمساك بها ، من طريق تشييد القلاع والحصون ، ما بين عدن والبصرة ، مروراً بمسقط والبحرين وبوشير . وكانت البرتغال ، التي سارت على هدى فاسكو دي غاما ، إحتلّت ، منذ ١٥٠٦ هرمز ، فالبحرين ومسقط ، حيث لُقّب مانويل الأول ، في بداية القرن السادس عشر ، «سيد الغزو والملاحة والتجارة» . كذلك ، كان من أهداف البرتغاليين احتلال مدينة جدّة ، حتى يتم لهم خنق التجارة المصرية النشطة في البحر الأحمر . إلا أن البرتغاليين ، فشلوا فشلاً ذريعاً في السيطرة على البحر الأحمر ، فحوّلوا اهتمامهم إلى مدن الخليج ، وبسطوا فيها نفوذهم ، فارضين الضرائب على سكانها . وكان الهدف الجديد لهم السيطرة على طريق التجارة العالمية ، خصوصاً شريانها الرئيسي ، الذي يربط الهند بأوروبا ، عبر الخليج ، من جهة ، والبحر الأحمر ، من جهة أخرى ، ومن ثم تحويل هذا الخط نحو رأس الرجاء الصالح ، كشريان جديد . وهذا هو الهدف ، الذي لم يتحقق للبرتغاليين ، فيما كانت السيطرة على البحار الجنوبية ، تنتقل إلى عهدة هولندا وبريطانيا .

لقد دخل الإنكليز هذه المنطقة ، كتجار أولاً ، ثم شيئاً فشيئاً ، جعلوا يمدّون نفوذهم صوب جنوب آسيا وطرق التجارة في بحار الجنوب . وكان لـ «شركة الهند الشرقية» (الإنكليزية) ، التي تأسست العام ١٦٠٠ ، دور مهم في تنفيذ مخططات بريطانيا هذه . فنالت هذه الشركة إذناً من حكومة صاحبة الجلالة ، في ١٦٨٨ ، بأن يكون لها جيش خاص وإدارة خاصة . ومع أن الوجود الإنكليزي ، كان ، ومنذ فترة طويلة ، تجارياً بحتاً ، غير أنه كان يتحوّل ، مع القرن الثامن عشر ، إلى وجود سياسي . ذلك أن الثورة الفرنسية ، وحكم بونابرت خلقا خشية فرنسية من طموحات الإنكليز في المنافسة ؛ لأن الخليج كان طريقاً حيوياً مهماً في ربط إنكلترا ببومباي ، فيما قامت سياسة إنكلترا على ضمان أمن خطوطها للمواصلات بين لندن ، رأس الأمبراطورية ، والهند ، قبلها[٣٦] .

هكذا ، أخذت إنكلترا تعزّز وجودها في الخليج ، كما كان للهولنديين دورهم المنافس ، إذ تأسست ، في ١٦٠٢ ، شركة الهند الشرقية الهولندية ، بينما أسس الفرنسيون ، في ١٦٦٤ ، شركتهم المماثلة . غير أن إنكلترا ، إستطاعت فرض سيطرتها الاقتصادية والسياسية ، هناك ؛ إذ إستعمرت الهند وجنوب الجزيرة العربية ، وبذلك انكفأت البرتغال نحو أفريقيا ، وهولندا إلى البحار الجنوبية ، في الجنوب الشرقي من آسيا .

وبالنظر إلى العلاقات التجارية القوية ، التي قامت بين إيطاليا والعالم العربي ، خصوصاً التجار العرب ، حظيت الرحلات التجارية بمزيد من التشجيع والرغبة في بدء اكتشاف بطون شبه الجزيرة[٣٧] .

كانت أولى رحلات الأوروبيين ، إلى الحجاز ومدينتي مكّة والمدينة ، رحلة لودفيك دي فارثيما ، أحد تجار البندقية ، الذي سافر إلى الإسكندرية ، عبر المتوسط ، ومنها إلى الحجاز ، عبر البحر الأحمر . وفي هذه الرحلة ، دخل

أوروبي مسيحي ، للمرة الأولى ، مكّة والمدينة ، وحاول كشف أسرارهما وخباياهما . وفي النتيجة ، وصف المدينتين المقدّستين ، كما كتب عن الصعوبات التي واجهته ، وما لاقاه من مشاكل لدى مروره في الصحراء ، خصوصاً من قبل البدو ، وما شهده من غرائب وعاشه من مغامرات[٣٨] .

وقد توالت رحلات الأوروبيين إلى شبه الجزيرة ، بعد اكتشاف أهميتها الإستراتيجية ، فقصدها تاجر ألماني من مدينة نورمبرغ ، العام ١٦٠٤ ، يُدعى يوهان فيلد ، في صحبة تركي ، كان مسافراً إلى مكة والمدينة وجدّة ، لعقد صفقات تجارية فيها . وقد ادّعى يوهان فيلد أنه عبد مرافق للتاجر التركي ، وبهذه الطريقة ، إستطاع الدخول إلى الحرم المقدس في مكة ، أثناء الحجّ ، فكان أول أوروبي مسيحي ، يدخل الكعبة ، وينقل إلى أوروبا مراسيم الحجّ فيها .

وقدّم فيلد ، في رحلته التي نُشرت ، حينذاك ، وصفاً دقيقاً لبعض المدن العربية ، خصوصاً تلك المقدسة في الحجاز ، فضلاً عن شرح واف لبعض المراسيم والعادات والتقاليد الإسلامية ، التي أسماها بـ «التركية» . وفي وصفه مراسيمَ الحج ، قال فيلد :

> بعد وصول الحجّاج الأتراك إلى مكّة ، يذهبون مباشرة إلى الحرم المقدّس ، لإقامة الصلاة فيه ، وعادة يصلّي المسلمون مرتين ، ثم يدورون حول البيت «الكعبة» سبع مرات . والبيت المقدّس ، يتوسّط المسجد ذا الزوايا الأربع . وفي المسجد إمام من أهل مكة ، هو الذي يصلّي أمام الناس . وكان المصلّون يردّدون ما يقوله الإمام من أدعية . وفي زاوية من زوايا البيت ، في الجانب الأيمن منه ، يقف حجر أسود لامع ، في حجم الكفّ ، يتجه نحو مشرق الشمس ، حيث يقف المسلمون أمامه ، ويقبّلونه سبع مرات ، وهم يلهجون بالدعاء

> ويردّدون : «يا ألله ، يا رحيم» ثلاث مرات متتالية ، ثم يخرجون من البيت ليؤدّوا مراسيم وطقوساً دينية أخرى ، حيث يروحون ويجيئون ، صاعدين هابطين ، وهم يرتّلون الآيات القرآنية ويلهجون بالأدعية[٣٩] .

لقد كان اكتشاف العالم العربي ، من قبل الرحالين والتجار الأوروبيين ، نقطة تحول مهمة ، بالنسبة إلى طرق التجارة البحرية إلى الهند والشرق الأقصى . وحتى ذلك الحين ، لم يكن ثمة سبيل ، لربط كل من آسيا وشرق أفريقيا بأوروبا ، غير رأس الرجاء الصالح ، في حركة السفن التجارية الأوروبية ، وهي تنقل الحرير من الصين ، والأحجار الكريمة من الهند ، واللؤلؤ من الخليج ، والتوابل والبخور من جنوب شبه الجزيرة العربية . وبات هذا صحيحاً ، بشكل خاص ، مع اندثار الطريق البري القديم المعروف بـ« طريق الحرير» ، المار عبر إيران والعراق وشبه الجزيرة . وعلى الرغم من أن عملية الاكتشافات الجغرافية ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بدت محدودة ، غير أن التجار والمغامرين البرتغاليين ، كانوا أتمّوا اكتشافهم لسواحل المحيطات ، وبدأوا بتحسين خريطة العالم ، التي رسمها بطليموس ، في القرن الثاني للميلاد ، بعد أن تعرّفوا بمؤلفات العلماء العرب والمسلمين في الجغرافيا وعلم البحار ، وخصوصاً خريطة العالم ، التي وضعها الجغرافي العربي ، الإدريسي (١١٠٠ ـ ١١٦٥) ، فاكتمل تصوّر خريطة جغرافية جديدة للعالم .

وكان من نتائج تغلغل الأوروبيين في العالم العربي ، بعد سيطرتهم على طرق التجارة الرئيسية فيه ، ظهور طور جديد في مقدّمات حركة الاستشراق ، تواكب مع سيطرة البورجوازية الغربية خارج حدودها التقليدية ، وهي تلك الحركة التي راحت تنمو وتتوسّع وتمتد إلى الشرق ، بشكل منظّم ومتسارع ، موسّعة ميادين المعرفة والبحث والاستقصاء ، ومبلورة رؤيتها الخاصة إلى الشرق[٤٠] .

وكانت البداية الأولى مع دراسة اللغات الشرقية ، كمفتاح لفهم العرب والمسلمين ، وهو ما بوشر به ، بُعيد سقوط غرناطة ، العام ١٤٩٢ ، كجزء من العمل التبشيري . وفي الوقت نفسه ، كانت كنيسة روما مهتمّة بتوحيد الكنائس الشرقية ، ومدّ النفوذ الأوروبي في العالمين العربي والإسلامي . كذلك ، إلتقت هذه الاهتمامات مع المذهب الإنساني ، الذي أخذ جاهداً في البحث عن ثقافة كونية ، تربط المصالح التجارية والسياسية النامية بالحضارات الإنسانية[٤١] .

لقد جاءت أولى المحاولات مع محاولة غيوم بوستل (١٥١٠ ـ ١٥٨٣) جمع مجموعة من المخطوطات العربية ، وتقديمها إلى الكنيسة ، «في خدمة الإيمان والوطنية الفرنسية» ، ثم تبعه ، على نحو مغاير ، سكاليغر (١٥٤٠ ـ ١٦٠٩) ، الذي شاء التحرر من المصالح التبشيرية ، وفردیناند دوفيديش ، الذي ساعد ، العام ١٥٨٦ ، على طبع أعمال ابن سينا ، الطبية والفلسفية ، إلى جانب مساعدته على طبع كتب النحو والجغرافيا والرياضيات ، لعلماء عرب ومسلمين . وقد بُذلت جهود أخرى ، في كل من ألمانيا وهولندا ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كانت ، في الواقع ، أفضل كثيراً من سابقاتها ، ولا سيما بالنسبة إلى أعمال ابن سينا[٤٢] .

إن الاتجاه الموسوعي ، الذي فرضه عصر النهضة في أوروبا ، ونمو الدول القومية الجديدة ، وكذلك اهتمام البابوية الجديدة بتوحيد كنائس الشرق أدت ، إلى جانب التخصّص في المعارف والعلوم ، إلى دراسة اللغات والنصوص الأدبية ، فنشأ ، في ١٥٣٩ ، أول كرسي لدراسة العربية في الكوليج دو فرانس ، في باريس ، حيث اهتم المعهد بجمع المخطوطات وطباعتها بالعربية . وكان المستشرق الهولندي ، ثوماس فان أربه (١٥٨٤ ـ ١٦٢٤) ، أول من نشر كتاباً في قواعد هذه اللغة . وفي ١٥٩٠ ، كان البابا أوربان الثامن ، قد أسس أول معهد للاستشراق في روما ، فاهتم بطباعة القرآن ونشره بالإيطالية ، العام

١٦٩٨ . أما في إنكلترا ، فأسّس أول كرسي للعربية في جامعة أكسفورد ، من قبل إدوارد بوكوك ، العام ١٦٣٨ .

ومع هذا التغيّر الواضح في مواقف المستشرقين ، وتزايد اهتمامهم بدراسة العربية وآدابها ، ظل «المستعربون» على شيء من الزهد الفكري ، حيال قضايا المجتمعات الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ففي هذا المجال ، لم يحصل تغيّر ملحوظ .

أما على المستوى العملي ، فتطوّرت الدراسات الاستشراقية في فرنسا ، حيث أصدر ديربلو (١٦٢٥ ـ ١٦٩٥) أول دائرة معارف إسلامية ، نشرها أنطوان غالان ، لاحقاً ، كما نشر غالان ، في ١٧٠٤ ، أول ترجمة لـ «*ألف ليلة وليلة*» بالفرنسية ، فقدّم للاستشراق بهذا ، دفعاً جديداً وحماسة كبيرة .

وعلى أثر رحلات الأوروبيين ، في القرن السادس عشر ، إلى الشرق ، أخذ البعض منهم يرتدي الملابس الشرقية الفضفاضة ، التي أثّرت في تطلّعات العصر الموسوعية في الأدب والفن ، فيما كان الانحسار الأيديولوجي للمسيحية ، يسهّل توجّه أوروبا الثقافي شرقاً . ولم يعد عالم الخلفاء والسلاطين والحكايات الخرافية والمغامرات ، هو الذي يجذب الرحالين والرسّامين وحدهم ، بل الأدباء والشعراء أيضاً . ومع أنهم شرعوا يتغنّون بسحر الشرق ، غير أنهم ظلوا أسيري تلك الصور الوهمية ، التي ساهم في رسمها الرحالون والتجّار . وقد ظهرت تلك الصور ، واضحة ، في عمل موليير «*البورجوازي النبيل*» ، وأعمال لراسين وفولتير وغيرهم[٤٣] .

كذلك ، ساهمت قصص «*ألف ليلة وليلة*» في خلق تلك الصور الرومنسية ، المغالية في الخيال ، عن الشرق . فمن خلال حكايات شهرزاد وعلي بابا والسندباد البحري ، تسنّى لبعض الغربيين بلورة الشرق الجديد . ذلك أنه :

لا يوجد مؤلّف شرقي ، أثّر في الأدب الأوروبي ، كما فعلت الحكايات الشعبية الرائعة والجذّابة . وبين ليلة وضحاها ، أصبح هذا الكتاب جزءاً من الأدب العالمي ، مثل *إلياذة* هوميروس وما يماثلها من أعمال . وكان بوكاتشيو أول من تأثّر بـ «*ألف ليلة وليلة*» ، في قصّة «ديكاميرون» ، التي تحكي قصّة «الأيام العشرة» . فالترجمة الأولى ، التي قام بها غالان ، كشفت عن تذوّق جمالي وحسّ شاعري وسحر رومنسي لم يعهده الأوروبيون من قبل ، وقد أحدثت تيّاراً جارفاً في الأدب والفن والشعر والموسيقى ، عُرف بـ «غرائب الشرق وبدائعه»[٤٤] .

وكان غالان قد تعرّف بالشرق ، خلال رحلاته الكثيرة إليه ، كما تعرّف بالقصص والأساطير والحكايات الشعبية ، التي كانت تُروى في شوارع بغداد والبصرة والقاهرة ودمشق ، ومقاهيها . فهذه أمدّته بالقدرة الفنية البارعة على تكييف السحر الشرقي مع روح العصر ، الذي عاشته فرنسا ، حينذاك ، بعد أن تم حذف بعض الفقرات والمقاطع ، التي كانت تتنافى مع أخلاقية ذاك العصر . فـ «*ألف ليلة وليلة*» ، التي كانت نتاج مرحلة ازدهار حضاري ، واتّسمت بالحرية ، كما عكست أجواء الإثارة والسحر ، حملت ما يتنافى مع الرؤية الديكارتية الضيّقة ، التي سادت فرنسا ، يومذاك[٤٥] .

وخلال العصر الفيكتوري ، حاولت إنكلترا الصناعية ، أن تفلت من التزمّت والتقاليد الصارمة ، وتهرب إلى عالم خيالي ، مملوء غموضاً وأحلاماً ، وذلك كرد فعل على سيطرة التكنولوجيا والنفعية المادية المسيطرة ، حينذاك . وهكذا كانت «*ألف ليلة وليلة*» منبع إلهام للجيل الجديد ، من الشعراء والأدباء الرومنسيين ، كتايلر وكوليريدج ووالتر سكوت وثوماس كارليل . وكان اللورد بايرون من أوائل الذين تأثّروا بـ «*ألف ليلة وليلة*» ، في كتابه «*الحكايات الشرقية*» ، إذ رأى الشرق «أرض مغامرات محيّرة ، وعواطف جيّاشة ، وقسوة غاشمة . إنها أرض فانتازيا ، يسكنها السحرة والمجانين والمخلوقات المتعددة

الأشكال» . كما رأى كوليريدج أن قصص شهرزاد «شبيهة بالأحلام ، إذ إنها لا تُبعدنا عن الواقع ، لكنها تعطينا صورة مغايرة له ، تلك الصورة التي لا يقدر العقل على إدراكها»[٤٦] .

أما في ألمانيا ، فظهرت الترجمة الأولى لـ «*ألف ليلة وليلة*» ، في ١٧١٠ ، على يد تالندر ، نقلاً عن النص الفرنسي لغالان . وهي لم تحظ ، يومذاك ، بأهمية كبيرة ، إلا بوصفها قصصاً خرافية للمطالعة والترفيه والتسلية . وبعد قرن من الزمن ، قام بورغستال بترجمتها كاملة ، معتبراً أنه «من هذه الحكايات ، نتعرّف بالعرب أنفسهم ، تحت خيام البادية ، وفي بلاط الخليفة ، ومع القوافل الراحلة ، وداخل مقصورة الحريم» . وكان لترجمة بورغستال تأثير عظيم في الشاعر الألماني ، رُكرت ، والمورّخ ، هيردر ، والفيلسوف ، شلغِل ، والأخوين غرِمّ ، وأخيراً في الشاعر العظيم غوته[٤٧] .

ومن ذلك التاريخ ، حاولت أوروبا المتجهّمة ، والضجرة من بؤس المدنيّة الصناعية الجديدة ، أن ترى ، في الشرق ، «صورتها المغايرة» ومهرب رغباتها المكبوتة وأحلامها . فقد كشفت «*ألف ليلة وليلة*» عن تذوّق جمالي وحسّ شاعري وسحر شرقي ، لم يعهده الأوروبيون قبلاً ، وكان لذلك تأثير كبير في تغيّر صورة الشرق الجامدة .

وفي غضون ذلك ، كانت الجامعات الألمانية ، خصوصاً جامعة هايدلبرغ ، قد كثّفت اهتمامها بدرس العربية وآدابها ، فظهرت الثمار الأولى لذلك ، في ١٥٨٢ ، مع صدور كتاب «*الألفباء العربية*» ، لعمانوئيل تريميليوس ، تبعه صدور قاموس عربي ، العام ١٥٩٧ ، ثم كتاب «*قواعد اللغة العربية*» فترجمة لسورة يوسف وكتاب «*الأجرومية*»[٤٨] . ويبدو لنا أن كلمة «مستعرب» (mozaraber) ، كانت أول مصطلح ، أشار إلى أولئك الأوروبيين ، الذين أخذوا يدرسون العربية وآدابها ، لتتحول الكلمة ، لاحقاً ، إلى «مستشرق» (orientalist)[٤٩] .

غير أن انعطافاً جديداً ، بدأ يظهر في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، حمل ، على الرغم من شكلية إطاره ، موضوعية أعلى . فقد صدرت ترجمة كتاب أبي الفدا ، عن سيرة الرسول ، على يد رايسكي ، في ١٦٦٣ ، ثم ترجمت ثانية بالفرنسية ، في ١٧٣٣ ، ثم في ١٨٣٧ . والجدير بالذكر ، أن الانعطاف المقصود ، هو ربط تاريخ الرسول ، للمرة الأولى ، بالدعوة الإسلامية . وفي مقدمة الكتاب جاءت صورة الرسول ، باعتباره رجلاً عملياً ، سعى إلى توحيد بلاد العرب ، التي ساد فيها الصراع والحقد والعصبية والقبلية ، كما صُوِّر الرسول كأحد دعاة التوحيد ، وأن «تجربته كانت نموذجية ، قامت على السماحة والعفو والمصالحة ، فهو درّة ثمينة في تاريخ العرب» . وهذا ما جعل فولتير ، أحد كبار المفكّرين ، الذين مهّدوا للثورة الفرنسية ، يعيد النظر في تقويمه لشخصية محمد ، ويعتبره مشرّعاً للمسلمين ، داعياً إلى المحبّة والوئام والتسامح . كذلك ، تحدّث ديدرو عن العبقرية العربية ، التي أنتجت مثل هذا المفكّر العظيم[٥٠] .

ومع كل هذه التغيّرات ، التي طرأت على بنية الاستشراق ، بقيت الصورة الغالبة صورة الشرقي ، كغيبي ، لاعقلاني ، وعاجز عن استكناه الواقع وإدراكه . فهو روحاني قبَلي ، أكثر منه واقعي تحليلي ، يعيش في حضارة غريبة ، وجوّ خرافي ، تسكنه الجنّ ، كما ينعكس إثارة وسحراً[٥١] .

الصورة الثالثة

عصر التنوير والرحلات المنظمة - الاستشراق والنزعة الرومنسية

كان من المفروض أن يكون عصر التنوير عصراً جديداً ، يتخطى الأيديولوجية الكنسية ، ويؤسس أيديولوجيا علمانية تقدمية ، وعقلانية نقدية ، تقف ضد تصورات العصور الوسطى ، وغيبيتها وأساطيرها اللاعقلانية . غير أن المبادئ ، التي نادى بها عصر التنوير ، لم تنزل إلى الواقع العملي ، بل تحولت إلى ذرائع سياسية متكاملة ، لخدمة الدولة البورجوازية .

لقد تحول مفهوم التقدم الاجتماعي - الأخلاقي لعصر التنوير ، إلى تقدم اقتصادي - تكنولوجي ، ساعد على هيمنة أوروبا على نفسها ، وعلى العالم ، كما تحول مفهوم العقلانية الإنساني ، الذي هو من أهم نتائج عصر التنوير الكبرى ، إلى خدعة ، وأصبح ، بذلك ، معطلاً . لقد نكص عصر التنوير ، وعجز عن تحقيق أهدافه ، وبذلك ، تحولت أيديولوجية التنوير إلى أسطورة ، أمسى العصر نفسه ضحية لها[٥٢] . وبدلاً من أن تكون المؤسسات العلمية والثقافية أكثر عقلانية وتسامحاً ، إذا بها تقع أسيرة عقلانية أوروبية ، شجعت على فكرة التمركز السلالي - الأوروبي ، التي تقوم على آلية رئيسية ، توجه تقييم أي ثقافة أو حضارة أو مجتمع وفق مصالحها ، وهي فكرة التمركز على الذات ، التي تعني أن الإنسان يرى أن طريقته ، ومجتمعه وحضارته ، هي أفضل من غيرها ، وهي نتيجة منطقية لعملية التثقيف والتربية الأولى . وقد تجسدت هذه الفكرة في اعتقاد الإنسان الأوروبي بكونه أكثر تقدماً وعقلانية وواقعية . ومن هذه الفكرة ، نشأ الاعتقاد بأن الشعوب الأخرى - غير الأوروبية - أقل تقدماً وعقلانية وواقعية ، وهذا يعني أنها أكثر تأخراً وتخلفاً وجهلاً .

وقد انعكست هذه الفكرة ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، على جميع المستويات ، في العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية ، التي تربط الشرق بالغرب ، وظهرت ، قبل كل شيء ، عند الكثير من الرحالين والتجار والمستشرقين ، وبصورة خاصة عند محدودي الثقافة والوعي ، و الموجهين بأيديولوجيا متميزة ، مثلما حدث عند بعض الرحالين والمستشرقين والأنثروبولوجيين ، الذين ذهبوا إلى الشرق ، وبقوا يعيشون في عالم مغلق على نفسه ، وفي برج عاجي ، وينظرون إلى الأشياء نظرة أحادية الجانب ، وفي سياق فكرة التمركز ـ السلالي الأوروبية . ومع أن كثيراً منهم أصبح أكثر تسامحاً وعقلانية ، غير أن الصورة العامة ، بقيت أسيرة عقلانية عصر التنوير وأيديولوجيته . وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، فقد أصبح الدين الاسلامي ديناً عقلياً ، بعيداً عن الديماغوجية ، بالنسبة إلى الدين المسيحي ، الأكثر تعارضاً مع العقل . فالدين الإسلامي ، يوفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية والاحترام المعقول لمطالب الجسد والحواس والحياة الاجتماعية؛ إنه دين أقرب إلى دين الإله المجرد ، الذي يدين به معظم مفكري عصر التنوير(٥٣) . كما ظهرت سيرة الرسول محمد وحياته ، أكثر وضوحاً وتسامحاً وواقعية ، ولم تعد صورته مشوهة ، كما كانت خلال العصور الوسطى وبعدها .

ومع هذا التحول في نظرة الأوروبيين إلى الشرق عموماً ، والعرب والمسلمين بوجه خاص ، تولدت بدايات الاتجاه الرومنسي في الاستشراق ، وتولد معه ذلك الميل ، المفعم بكل ما هو «غريب» (exotisch) ، إلى ما هو طبيعي وغريب . بل هو اتجاه له خصوصية معينة ، إذ كان «الغريب» دوماً هو العجيب أيضاً . ومن هنا ، بدأ الشوق والتلذذ برؤية الشرق الغريب العجيب ، بل الشوق إلى الأعجب والأغرب(٥٤) .

لقد كانت الحركة الرومنسية هروباً من واقع مزيف ، من مدنية صناعية حديثة ، أفرزت آثاراً اقتصادية واجتماعية وأخلاقية سلبية ، هروباً إلى الطبيعة ،

إلى الحرية الطبيعية ، التي دعا إليها جان جاك روسو ، في صفائها ونقائها وغرائبها المحببة . هكذا ، تولدت بدايات الإثنولوجيا الرومنسية ، مثلما تولدت الرومنسية الإنكليزية ، التي توجهت نحو الشعر البدائي ، وميل الشعراء نحو اكتشاف الغريب و المجهول . ومثلما فعل وليم جونس ، في إنكلترا ، سعت أيضاً حركة Strumm und Drangs ، في ألمانيا للتوصل إلى معنى الإبداع والروعة و الخيال السحري . ومثل انشغالات هيردر (Herder) (١٧٧٦ ـ ١٨٤١) في دراساته التأريخية ـ الفلسفية ، عن الآداب الشرقية وإسهامات العرب والمسلمين في الفلسفة والعلوم التجريبية والثقافة الإنسانية ، حيث قال : «لقد كان العرب أساتذة أوروبا»(*)، وكذلك شاعر ألمانيا العظيم غوته (Goethe)(**) ، الذي كتب ، العام ١٧٧٤ ، قصيدته الرائعة ، نشيد محمد (Mohamets Gesang) ، أضف ما كتبه في «الديوان العربي ـ الشرقي» ، العام ١٨٦٩ . أما فردريك شليغل (F. Schlagel) (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩) ، فقد اتسمت فلسفته بأعلى ما وصلت إليه الرومنسية في ألمانيا ، إذ دعا إلى البحث عن الرومنسية «في الشرق الأسمى»(٥٥) . أما فولني (Volney) (١٧٥٧ ـ ١٨٢٠) ،

(*) وكان يشير إلى أن البواعث الأولى ، لعصر التنوير العقلي في أوروبا ، تعود إلى الاحتكاك بالحضارة العربية ، في صقلية والأندلس . (هللر ، ص٥٩) .

(**) غوته (١٨١٤) الذي يقول :
«من يعرف نفسه والآخرين
يعترف هنا أيضاً ،
أن الشرق والغرب
لا يمكن أن يفترقا» .
ويقول : «فلتهرب أنت إلى الشرق
حيث رياح الصبا الهادئة
وحيث الحب والشراب والمغني ،
تعيد إليك صباك الذي ولّى» .
عني غوته دوماً بالآداب الشرقية ، واهتم بالإسلام واندفع إلى دراسة القرآن الكريم وسيرة الرسول . وقد استلهم غوته إيحاءات فكرية كثيرة ، من الشعر الشرقي ومن القرآن الكريم والمعلقات وقصص ألف ليلة وليلة .

الذي مثل الاتجاه ما قبل الرومنسي ، فقد رحل إلى سوريا ومصر ، وكتب عنهما في رحلته ، التي طبعت العام ١٧٨٧ ، ملاحظات قيمة عن الواقع الاجتماعي والسياسي ، من منظور اجتماعي نقدي ، ورؤية ثاقبة إلى الأمور ، وتحليل وجداني عميق . لقد انتقد نقداً صارخاً الوضع الاجتماعي ـ السياسي السائد ، آنذاك ، مثلما انتقد «المجتمع الحضاري والمستنقع المدني» ، وهذا ما دفعه إلى الهروب إلى مجتمع البادية ، حيث ينال رضا البدو ، وبعض الأقليات أيضاً ، وخصوصاً سكان الجبال في سوريا . وقد كشف في رحلته حالة الفوضى و«اللاأمن واللاحرية واللاملكية ، واللااندماج قومي ، اللاحرب واللاسلام» ، إلى جانب التعصب والنفاق . وتعتبر رحلة فولني ، إلى مصر وسوريا ، من أهم وأعمق رحلات القرن الثامن عشر ، وأكثرها نقداً ، وإنسانية ، في الوقت نفسه . وقد ترجم الجزء الأول منها باللغة العربية ، على يد إدوارد سعيد البستاني ، في بيروت ، العام ١٩٤٩ . وقد كتب فولني كتاباً آخر ، العام ١٨٠٩ ، وهو مجموعة دراسات مهمة عن آثار مصر القديمة ، وعن جغرافية مصر وسكانها ، والتطور التكنولوجي فيها . وهي دراسة سوسيولوجية قيمة(٥٦) .

لقد دفعت الرومنسية ، بلجوئها إلى سحر الذاتية و الانفعال ، والافتتان بالغريب والعجيب ، إلى ميلاد عصر جديد للاستشراق ، زاد فيه الاهتمام والعناية باللغات والحضارات والآثار الشرقية . ولعب هذا العصر دوراً مهماً وأساسياً في تهيئة الأجواء للحملة الفرنسية ، على مصر ، واحتلالها من قبل نابوليون بونابرت . ففي هذاالعصر ، تُرجم الكثير من أمهات الكتب العربية ، في الفلسفة والتاريخ والأدب ، كـ «*الكامل*» لابن الأثير ، و«*سيرة ابن هشام*» ، و«*تاريخ الطبري*» و«*المغازي*» للواقدي ، و«*تاريخ اليعقوبي*» ، و«*الدرر الفاخرة*» للغزالي ، و«*البدء والتاريخ*» للمقدسي ، و«*البردة*» للتوحيدي ، وغيرها كثير وكثير . وبهذا ، أصبح دوساسي سيد المستشرقين ، في فرنسا ، وأصبحت

باريس قبلة الذين يريدون التخصص في الدراسات الشرقية . وإذ تصوّر دوساسي علم اللغة العربية في إطار رؤية كونية كلية وشاملة ، مثل مفكري عصر التنوير ، فإنه أحدث قطيعة نهائية مع اللاهوت ، في حين بقيت الجامعات الألمانية ، حتى ذلك التاريخ ، أسيرة اللاهوتيين . غير أنه في ١٨٠٩ ، أصدر فون هامر بورغشتال أول مجلة متخصصة في الاستشراق ، في أوروبا ، سماها «مناجم الشرق» (Fundgruben des orient) . وكان من أهم أهدافها مواصلة التنقيب عن كنوز الشرق ، التي لم تكن قد اكتشفت . وفي ١٨٢١ ، أُسست الجمعية الآسيوية ، في باريس ، وأصدرت ، العام ١٨٢٣ ، «الجريدة الآسيوية» (Jurnal Asiatique) ، ثم في ١٨٣٤ ، صدرت جريدة «الجمعية الملكية الآسيوية» ، في بريطانيا وأيرلندا . أما في أميركا فأُسست أول جمعية شرقية ، عرفت بهذا الاسم . وفي لايبسغ ، صدرت حوليات الجمعية الألمانية لبلاد الشرق (ZDMG) ، العام ١٨٤٧ ، والتي ما زالت تصدر حتى اليوم ، وتعدّ من أكبر مجلات الاستشراق في العالم وأشهرها .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وحتى مطلع القرن العشرين تمت ترجمة القرآن الكريم ، في أوروبا ، وبلغات متعددة ، وطبعات مختلفة ومتنوعة .

ويعتبر أهم معهد ، لعلوم القرآن ، في العالم ، معهد ميونيخ بألمانيا . ويحوي المعهد مكتبة ، ومتحفاً ، فيه أكبر وأقدم ما وجد ويوجد من المطبوعات القرآنية ، خصوصاً باللغة العربية ، والعلوم القرآنية ، والتفسير وفنون القراءات . إضافة إلى تصوير النسخ الخطية ، القديمة والحديثة بلغات شتى . ويضم هذا المعهد نسخاً نادرة من القرآن الكريم ، منذ القرن الأول الهجري وحتى اليوم . وقد وضع المعهد نظام الكارتات (Karten System) . فكل كارتة لتفسير معين ، ومفسر معين ، وزمن معين ، من الأقدم فالأكثر قدماً . غير أن هذا الجهد العلمي العظيم ، كان عرضة لقنابل الحرب العالمية الثانية ، التي

دمرته تدميراً ، وهلك من في المعهد ، ونقل ما تبقى منه إلى جامعة ماربورغ ، للحفاظ عليه[٥٧] .

إن الحركة الرومنسية ونزعة «التغريب» ، التي انبثقت منها ، لم تغيرا ، في الحقيقة ، نوعية العلاقات الثقافية ، بين الشرق والغرب ، لأن هذه الحركة ، ليست سوى حالة خاصة ، تطورت داخل أوروبا ، كرد فعل على العقلانية التنويرية ، وهي ليست مجرد ميل إلى الخروج إلى الخارج الغريب العجيب ، بقدر ما هي حركة موضوعية ، لها خصوصية ونوعية ارتبطتا بالإرهاصات العميقة ، التي فرزها المجتمع الصناعي الجديد . أما الاستشراق ، فقد اهتم بالدرجة الأولى ، بشواغل عصر التنوير من جهة واحدة ، وهي الاهتمام بالآخر ، وبلغاته وحضارته وآثاره ، على اعتبار أن جوهر كل حضارة إنسانية ، وكذلك نواتها الأساسية ، هما العقيدة واللغة .

وتتجلى الصورة الرومنسية ، التي رسمها الكتاب والشعراء للشرق ، من خلال كتاب فكتور هوغو (V. Hugo) «*الشرقيات*» ، العام ١٨٢٩ ، الذي قدم كتابه هذا بعبارات لشاعر إيران الكبير ، سعدي ، مع مجموعة قصائد عربية وفارسية . وقد رسم لنا هوغو الصورة التي وضعها الشعراء والكتّاب الأوروبيون للشرق في العام ١٨٢٥ :

> فجور ملوّن ، فخامة مع وحشية بربرية ، سراي ، مع رؤوس مقطوعة ، نساء يلقى بهن في مياه البوسفور ، وهن داخل أكياس ، قلاع مزدانة براية الهلال ، قبب مستديرة لازوردية ، ورشاقة المآذن البيضاء ، جوار ، خصيان ، ووزراء ، ينابيع عذبة تحت النخيل ، كفار يذبحون ، وأسيراتٌ يستسلمن لغراميات المنتصر الصاخبة .

هذه اللوحات الرومنسية الصارخة ، المتناقضة في الوقت نفسه ، كانت مثيرة للخيال ، مثلما هي «مثيرة للغرائز المازوخية والسادية للمواطن الأوروبي البورجوازي الذي يعاني الكبت والرتابة والملل» ، كما عبر عنها الشاعر الألماني

هاينريش هاينه[٥٨] . وهي الصورة نفسها ، التي يبحث عنها الرحالون والمغامرون ، وبعض المستشرقين أيضاً ، حين يذهبون إلى الشرق ، برؤية أحادية الجانب ، وحكم مسبق . فهذه الصورة ، الملونة بالحس الأوروبي ، تترجم في شكل أو آخر ، واقع الحال في أوروبا القرن التاسع عشر ، وهي صورة ، ما زال الشرقي فيها عدواً ولكنه بات عدواً مهزوماً سلفاً ، مع انحسار تركيا عن البلقان ، واستقلال اليونان ، واستيطان الجزائر (١٨٣٠) ، واحتلال عدن من قبل إنكلترا ، العام ١٨٣٩ .

أما في الرسم ، فقد ظهرت هذه الرؤية بشكل أوضح . فبعد الحملة الفرنسية على مصر (١٩٧٨ ـ ١٨٠١) ، بدأت رحلات الرسامين إلى العالم العربي ، بحثاً عن سحر الشرق وأحلامه ، وسعياً لإثراء وسائل التعبير ، من خلال الانطباعات الحسية والألوان ، وتوزيع الضوء والظلال . فقد رحل عدد من كبار الرسامين ، أمثال رينوار وماتيس ولاكروا ، إلى مصر وشمال أفريقيا ، كما رحل هينت وغيره إلى فلسطين وسوريا ، مجذوبين بسحر الأراضي المقدسة ومدفوعين إلى استيحاء موضوعات جديدة ، من البيئة التي نشأ فيها السيد المسيح . وذهب آخرون إلى الشرق متطلعين إلى رؤية عالم مغاير ، في مدن الشرق والطبيعة الساحرة والعالم الخيالي ، ومن أجل حفز خيالهم وقدراتهم الإبداعية ، وتطوير الأطر التقليدية في فن الرسم الأوروبي[٥٩] . وفي الحقيقة ، بالغ هؤلاء الرسامون في تقديم لوحات لمناظر طبيعية أو لمدن شرقية ، مبرزين فيها الجوامع والحمامات وقوافل الجمال والحريم ، وفي تفاصيل وتضخيمات بعيدة عن الواقع . وكانت صوراً صاخبة الألوان لقصور وأبراج ، تظهر عالم الحريم الفاتن من جهة ، وعالم الرجال الغلاظ ، بسيوفهم وعمائمهم وعبيدهم ، حيث تقطع الرؤوس وتدق الأعناق[٦٠] . وكان أغلب تلك اللوحات الفنية مجرد انعكاس لتصورات غريبة ، بعيدة عن الواقع ، يخترع فيها الرسام أحلاماً هروبية إلى عالم مغاير . وهي ، من جهة أخرى ،

موحية ، رومنسية جديدة ، كانت تتكلم على الفنان ، أكثر مما تنم على ما في لوحاته من مواضيع . إنها «مرايا سحرية لعالم بورجوازي ، أصابه الملل والضيق»[٦١] .

لقد رحل غوستاف فلوبير إلى مصر ، مدفوعاً بسحر الشرق وخياله ، ورسم لوحات عديدة ، سجل فيها رؤيته الجديدة إلى الشرق . وقد قال :

> تسألني عما إذا كان الشرق كما تخيّلته من قبل ، نعم ، إنه كذلك ، بل أكثر من ذلك ، إنه أبعد من تلك الفكرة المحدودة ، التي كوّنتها عنه ، قبل زيارتي . لقد وجدت جميع ما تخيلته بصورة غامضة ، في صورة ملموسة زاهية ، لقد حلت الحقائق محل الأخيلة المسبقة[٦٢] .

وفي الواقع ، فإن صورة الشرق «الأسطورية» ، هي الوجه الآخر المقابل للعقلانية الغربية ، التي كوّنت واقعاً اجتماعياً معيناً ، وطورت معايير فلسفية وقيماً أخلاقية وفنية ، وصوراً حضارية ، تتفق والتطور الديناميكي للعلم والتكنولوجيا ، التي سادت في القرن التاسع عشر . والصورة المغايرة ، التي رسمها بعض الأوروبيين للشرق ، وأثارت الوعي بالذات وبالخصوصية و التفرد ، كانت تكونت من خلال المغايرة ، لأن صورة الغير ، هي ، على الدوام ، صورة الذات معكوسة .

وفي الحقيقة ، ليس سحر الشرق ، وصوره الزاهية ، وأهميته الثقافية ، هي التي جلبت أنظار الأوروبيين إلى الشرق فحسب ، بل تلاقي هذه الصور والمعارف مع المصالح الحيوية والإستراتيجية للغرب . بالإضافة إلى ما في بطون العالم العربي ، من كنوز وآثار . وقد اندفع هؤلاء ، بوعي أو من دونه ، إلى عالم الشرق ، مشدودين إلى أيديولوجيا متعالية ، ما عدا القليل منهم ، الذين عادوا وهم محمّلون بمعطيات كثيرة ومثيرة للاهتمام .

ومن الرحلات المثيرة إلى الشرق ، تلك التي رعاها ملك الدانمرك وأكاديمية العلوم . وكان على رأس البعثة العلمية العالم الجغرافي الألماني ، فردريك

كارستن نيبور الذي درس اللغات الشرقية والعلوم الإسلامية ، وتعرف بثقافات الشرق وحضاراته . وقد رافقه ، في رحلته الطويلة ، خمسة علماء آخرين ، بينهم بيتر فورسكال ، الاختصاصي في تاريخ العلوم الطبيعية والنبات والحيوان ، والرسام جورج واكيم بورنفايند . وقد قام نيبور بدراسة جغرافية البلدان التي زارها ، من الناحيتين الطبيعية والبشرية ، وكذلك المظاهر الحضارية والاجتماعية والدينية ، بينما قام فورسكال بدراسة نباتات المنطقة ومزروعاتها . أما بورنفايند ، فقام برسم الآثار ، والنباتات ، والحيوانات ، ومخططات للمدن والآثار . وبسبب الصعوبات الشديدة والمشاق المتتالية ، التي عانوها ، توفي معظم أعضاء البعثة ، ولم يبقَ على قيد الحياة سوى كارستن نيبور ، الذي عاد إلى بلاده ، ونشر رحلته المفصلة إلى العالمين العربي والإسلامي . وقد صدر الجزء الأول منها ، في كوبنهاغن ، العام ١٧٧٤ ، والثاني ، العام ١٧٧٨ ، ثم الثالث ، العام ١٧٨٧[٦٣] .

بدأت رحلة نيبور من كوبنهاغن ، في ١٥ آذار/ مارس ١٧٦١ ، على ظهر سفينة ، عبرت به مضيق جبل طارق ، ماراً بمالطا ، حتى وصل إلى إستانبول . ومنها ، أبحر ، ثانية ، إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة . وخلال إقامته في القاهرة ، واصل دراسته للعلوم الإسلامية واللغة العربية ، واطّلع على كتب الجغرافيين والرحالين العرب . ومن القاهرة ، سافر إلى جزيرة سيناء ، فمدينة السويس . ثم واصل رحلته ، بحراً ، إلى جدة . وفي نهاية ١٧٦٢ ، وصل نيبور إلى اليمن ، ومنها رحل ، على ظهر باخرة إنكليزية ، إلى الهند ، حيث بقي حتى نهاية ١٧٦٤ . وخلال عودته من الهند ، زار مسقط وعمان ، ثم واصل سفره ، عبر الخليج ، إلى العراق ، حيث زار مدن البصرة والنجف وبغداد والموصل .

لقد تضمنت رحلة نيبور ، الحافلة بالأخبار والتجارب وكثير من المخاطر ، معلومات إثنوغرافية ، وافية ومفصلة ، حول جغرافية البلدان ، التي زارها ،

والشعوب التي تعرف بها ، فوصف مجتمعاتهم ، وأنماط حياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وطقوسهم الدينية . كما تضمنت رحلته عرضاً لتاريخ تلك البلدان الحضاري والاجتماعي والسياسي ، قدر خبرته ومعلوماته ووفق ما استطاع جمعه والحصول عليه ، حينذاك . كما جمع معلومات وافية عن آثار الحضارات القديمة ، التي ازدهرت في تلك المنطقة .

ومن أمتع المعلومات الإثنوغرافية وأهمها ، وصف نيبور لمدن مصر وسكانها وتجارتها الرائجة ، إلى جانب وصفه الدقيق لطرق الري الزراعية ، وأساليب الفلاحة المتقدمة . وقد أشاد نيبور بعصّارات الزيوت ، وأفران تفقيس البيض ، التي اشتهرت بها مصر ، حينذاك ، وكان وصفه لحياة المصريين الاجتماعية والاقتصادية ، وكذلك لأزيائهم ووسائل لهوهم ومرحهم ، وصفاً دقيقاً بارعاً . وإلى جانب ذلك ، قدم وصفاً مفصلاً لموانئ الجزيرة العربية ، وبيّن أهميتها ونشاطها التجاري ، وأنواع البضائع والسلع التي يتعاملون بها . كما كتب عن الإسلام والمسلمين ، والمذاهب الإسلامية المختلفة ، والطقوس والمراسيم التي يقومون بها . وأشار إلى الحياة في الصحراء ، وحياة البدو الرحالين الشاقة ، إلى عاداتهم ومثلهم القبلية . وخلال زيارته إلى العراق ، وصف بلاد ما بين النهرين وحضاراتها القديمة ، ومدن بابل وآشور وآثارها العظيمة . وقد أبدى اهتماماً خاصاً بمدن البصرة وبغداد والنجف والموصل ، فوصف ما فيها وما حولها وصفاً دقيقاً وممتعاً . وكان نيبور ، خلال رحلته الطويلة الشاقة ، يسجل كل ما يعيشه ويراه بنظره الثاقب . كما كان بورنفايند ، يرسم له كل شيء ، يراه مفيداً ومهماً ، من مدن وآثار قديمة ومظاهر حضارية مهمة . وبذلك استطاع جمع معلومات إثنوغرافية وافية ، عن المناطق التي زارها والأماكن التي عاش فيها ، ودرسها عن كثب . وكان ، في ذلك ، أقرب إلى روح الباحث العلمي المتعمق ، منه إلى الرحالة المتطفل والتاجر المصلحي والحاج المتدين . وقد حاول نيبور ، نسبياً ، الابتعاد عن الانحياز وإعطاء الأحكام القيمية المسبقة ، كما يبدو من تقييمه للأشياء والأشخاص ، ولم يكن متعالياً ، ولا

يستطيع المرء ، أن يشتم ، بين سطور ما كتبه ، رائحة التفوق الحضاري والتمركز الأوروبي ، كما فعل كثير من الرحالين والتجار والحجاج ، الذين زاروا الشرق ، أو حجوا إلى الأراضي المقدسة ، في فلسطين ومكة والمدينة . لقد ظل نيبور ، لأكثر من قرن ، نموذجاً ومرجعاً مهماً لكل من يريد التعرف بالشرق ، أو الرحلة إليه من الأوروبيين . وميزته الأولى تعود ، أساساً إلى محاولته أن يكون محايداً وموضوعياً وصادقاً ، ويبدو ذلك واضحاً من المعلومات الإثنوغرافية الدقيقة والملاحظات العلمية القيمة ، التي جمعها ، وتمحيصه لما جمعه وسجله . وتعتبر رحلة نيبور ، الحافلة بالمعلومات ، ذات أهمية كبيرة لإنسان القرن الثامن عشر ، في أوروبا ، الذي أخذ يتطلع إلى ما وراء القارة الأوروبية ، سعياً إلى كل جديد ومفيد .

ويبدو أن نيبور ، كان قد شك في ما قدمه بعض الرحالين والحجاج والمستشرقين عن الشرق ، بصورة عامة ، وعن العرب والمسلمين ، بصورة خاصة ، من أوهام وأساطير بعيدة عن الواقع والحقيقة . وكانت طريقة البحث العلمي ، التي اتبعها ، خلال رحلاته ، أقرب إلى المنهج النقدي ، الذي اتبعته العلوم الطبيعية ، آنذاك ، بتأثير من مبادئ عصر التنوير . وتكاد تكون أحكام نيبور على الشرق ، أقرب إلى أحكام رواد المدرسة الإنسانية المتسامحة[٦٤] . ومن الممكن أن نقارن دوره التوضيحي عن العرب والمسلمين بدور المفكر الألماني ليسنغ في كتابه «*ناتان الحكيم*» ، خلال عصر التنوير ، حيث دعا إلى التآخي ، والتسامح بين الأديان ، واحترام الشعوب ، مثلما أشار إلى الحكمة والتسامح اللذين اتصف بهما العرب والمسلمون ، خلال الحروب الصليبية ، واعتبر صلاح الدين الأيوبي مثلاً أعلى لهذه الحكمة وهذا التسامح .

لقد دفعت رحلة نيبور كثيراً من علماء الآثار والمستشرقين ، إلى مزيد من الدراسات والبحوث والتنقيب عن الآثار الحضارية القديمة ، في مصر و العراق وجنوب الجزيرة العربية . وكان علماء الآثار الإنكليز أول من بدأ بالبحث عن

الكنوز الحضارية المطمورة ، والكشف عنها ، ونقلها إلى أوروبا وأميركا .
فخلال محاولات محمد علي باشا تأسيس دولة كبيرة في مصر ، تستقل عن الدولة العثمانية ، من جهة ، وحدوث ثورة الوهابيين ، التي انطلقت من الجزيرة العربية ، بقيادة محمد بن عبد الوهاب ، في منتصف القرن الثامن عشر ، والتي حاولت إعادة الإسلام السلفي إلى بساطته ونقاوته الأولى ، وإعلانها الجهاد ضد «الكفار» ، ومدّ نفوذها إلى أرجاء الجزيرة العربية ، تشجّع بعض المستشرقين والرحالين والمغامرين على القيام برحلات إلى الجزيرة العربية . وكان من أهم تلك الرحلات ، ما قام به أورلش سيتزن ، وهو عالم ألماني مختص بالجيولوجيا وعلم النبات ، عمل في صناعة المياه المعدنية ، بعد أن ترك مهنته الأصلية ، وهي الطب ، لاهتماماته المختلفة ، وركز ، بصورة خاصة ، على دراسة الطبيعة ، وطرق استغلالها ، وأهميتها في تطور الإنسانية .
وكان سيتزن من أولئك المفكرين التطوريين الذين خرجوا عن إطار التفكير الأوروبي الضيّق ، عهد ذاك . وكان من أهدافه زيارة اليمن والتعرف بحضارة سبأ القديمة ، وكذلك أفريقيا . ويمكننا تتبع الأسباب ، التي دفعته إلى القيام برحلته هذه ، من قراءة مقطع صغير ، من رحلته إلى الجزيرة العربية ، حيث يقول :

لقد فتحت رحلتي ، إلى الجزيرة العربية ، حقلاً واسعاً من الشوق والرغبة في السفر ، وجعلتني رحالة متحمساً . . . وليس هناك من شيء يفك ارتباطي بوطني . وربما سيهتم بي قسم كبير من الأوروبيين المتحضّرين ، وبما أقوم به ، فيما إذا استطعت إشباع رغباتهم وتوقعاتهم ، وفيما إذا استطعت أن أصبح شهيراً ، أو عاراً . . . لقد دفعتني رغبتي في البحث العلمي إلى أن أحقق خطتي ، وأصل إلى هدفي . . وربما سأفشل وأنزل إلى الحضيض .

وبسبب ظروف سيتزن المالية الصعبة ، اضطر إلى البقاء سنة كاملة في حلب ، حيث كتب يقول : «إن رغبتي في زيارة العالم العربي وأفريقيا ، قد ازدادت أكثر فأكثر ، وقد وجدت أن الشرقيين بشر مثلنا !»[٦٥] .

لقد كتب سيتزن العبارة الأخيرة ، ساخراً من تلك الصورة المشوهة ، التي رسمها الكتاب والشعراء الرومنسيون ، ومن قبلهم الرحالون والمغامرون ، للعرب والمسلمين ، محاولاً تغيير الذهنية ، التي سادت في أوروبا ، والتي اعتبرت الشرقيين «برابرة ومتوحشين» ، وكانت مدعومة من قبل الكنيسة وقادة الحروب الصليبية .

ودخل سيتزن الإسلام ، طوعاً ، وسمى نفسه علياً ، وبذلك استطاع ، بعد عام كامل ، البقاء في الحجاز وزيارة مكة والمدينة .

وخلال إقامته في الحجاز ، رسم مخططاً لمدينتي مكة والمدينة المقدستين ، وجمع بعض القطع الأثرية . ولم يستطع سيتزن تحقيق هدفه الثاني ، وهو زيارة أفريقيا . فعندما وصل إلى تعز ، في اليمن ، وُجد ميتاً ، بالقرب من مدينة مُخا اليمنية . ولم تعرف أسباب موته ، ومن المحتمل أن يكون قد أعطي السم ، بإيعاز من إمام اليمن ، بسبب الشكوك التي دارت حوله ، كونه رسم مخططاً لمدينتي مكة والمدينة[٦٦] .

إن المخططات ، التي رسمها نيبور وسيتزن ، لجغرافية العالم العربي ومدنه ، لم تكن سوى صورة موسعة ومنقحة لخارطة كلوديوس بطليموس الإسكندري ، الذي عاش في القرن الثاني ، بعد الميلاد ، وخاصة فيما يخص تقسيم الجزيرة العربية إلى ثلاث مناطق :

١ ـ الصحراء العربية (Arabia deserta) وهي الأراضي ، التي تقع شرق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، إمتداداً إلى الخليج .

٢ ـ البتراء العربية (Arabia Petraea) وهي منطقة الصخور البركانية ، التي ازدهرت في وديانها حضارة النبط العربية ، في القرن الرابع وحتى القرن الأول ، قبل الميلاد ، وضمت جزيرة سيناء ، إمتداداً إلى سلسلة الجبال الشرقية ، من جهة ، والحجاز ، من جهة أخرى .

٣ ـ اليمن السعيدة (Arabia Felix) وهي منطقة جنوب الجزيرة العربية ، التي ازدهرت فيها حضارة السبئيين .

وفي بداية القرن التاسع عشر ، بدأت الجامعات والمعاهد العلمية الأوروبية ، وبصورة خاصة ، الجامعات الألمانية ، بتوسيع معلوماتها عن البلدان والشعوب ولغاتهم وحضاراتهم ، وكانت جامعة برلين بمساعدة مؤسسها ، عالم الجغرافيا هومبولد ، قد بدأت بالاهتمام بالدراسات الجغرافية والأثنولوجية للمناطق والشعوب البعيدة عن العالم الأوروبي ، وكذلك جغرافية العالم وما في الكرة الأرضية من شعوب ونبات وحيوان ، والاهتمام ، في الوقت نفسه ، بدراسة اللغات المختلفة والعادات والتقاليد ، ومن جميع القارات ، عدا أوروبا[٦٧] . وكانت هذه المرحلة آخر أهم مرحلة من مراحل الاستكشافات الجغرافية ، وبداية لعصر جديد ، هو عصر الاستعمار والأمبريالية .

كانت أهم رحلات القرن التاسع عشر رحلة يوهان بورخارت ، عضو جمعية بازل العلمية ، الذي أرسلته ، العام ١٨٠٩ ، للقيام برحلة في أرجاء العالم العربي ، لدراسة جغرافيته وتاريخه وشعوبه ولغاته . وقد بدأ بورخارت رحلته باسم مستعار ، هو «إبراهيم بن عبد الله» ، وانتحل شخصية تاجر هندي مسلم ، يعمل لدى شركة الهند الشرقية . وعندما وصل بورخارت إلى حلب ، سكن في القنصلية الإنكليزية فيها . ومن هناك ، أخذ يقوم برحلات متعددة . وكان ينتحل ، في كل مرة شخصية معينة ، فكان يرحل ، مرة في زي بدوي ، وأخرى في زي تاجر هندي . وقد طاف بورخارت أغلب مدن سوريا وفلسطين والعراق ، وتجول في ضفاف الفرات ومدنه وقراه . وفي

رحلته الثانية إلى الشرق ، سافر إلى مصر ، صاعداً نهر النيل إلى أراضي النوبة ، ومنها ، عبر البحر الأحمر ، فزار جدة ومكة والمدينة . وخلال إقامة بورخارت في مكة ، حاول التوغل في الصحراء العربية ، للتعرف بالقبائل البدوية وإقامة علاقات وطيدة معها ، غير أن حركات الوهابيين ، حالت دون تحقيق هدفه . ومع ذلك ، فخلال إقامته في الحجاز ، تعرف ، عن كثب ، بحياة البدو في الصحراء القاسية وبعض عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم . وقد اعتبر بورخارت القبائل البدوية من أنبل الشعوب التي عرفها .

فهم رغم كل أخطائهم أرفع من الأوروبيين في كثير من الصفات ، كما أنهم أرقى من الأتراك في كل اعتبار . . . وقد يحب البدو الغزو والسلب ، غير أنهم يعوضون هذه العادات بفضائل أخرى كثيرة .

أما الأتراك ، فهم في نظره :

يشتركون مع البدو في الصفات السيئة ، ولكنهم لا يتمتعون إلى جانبها بأي فضائل أخرى . . . والبدوي يحب الحرية بطبعه ، وقد جعله هذا الحب ، يفضل حياة الصحراء القاسية على حياة الاستقرار الناعمة . . .[٦٨] .

وقد رأى بورخارت «أن من أرقى صفات الخلق البدوي ، هو كرمه ومروءته وإحسانه ومعروفه وسلوكه المسلم ، عندما لا تثار كبرياؤه وتجرح كرامته»[٦٩] .

وقد قدم لنا وصفاً مسهباً للمسجد الحرام ، في مكة ، مثلما قدم وصفاً دقيقاً للحجر الأسود ، المقدس عند المسلمين ، فهو :

كتلة من الحمم البركانية ، موشاة أطرافها بعدد كبير من أجزاء خارجية ، من مادة بيضاء أو ضاربة إلى الصفرة . أما لون المركز ، فأحمر مغبّر وقاتم ، يميل إلى السواد . . . إنه في شكل بيضوي ،

مكون من حوالى اثني عشر حجراً ، ذات أحجام وأشكال مختلفة ، يلتصق بعضها بالبعض الآخر بالملاط . فهو صقيل ناعم ، ويوحي مظهره ، على أغلب الظن ، بأنه قد فصم بضربة عنيفة إلى عدة قطع ، ثم أعيد تجميعة من جديد[٧٠] .

ومن المعروف ، تاريخياً ، أن الحجر الأسود ، كان قد سرق من الكعبة ، من قبل القرامطة ، ثم أعيد إلى مكانه ، العام ٣١٤ هـ ، كما يعزو بعض المؤرخين حدوث الكسر فيه إلى حريق المسجد الحرام ، خلال ثورة ابن الزبير ، العام ٦٤ هـ ، ضد يزيد بن معاوية .

وخلال رحلة بورخارت إلى مصر ، أثناء احتلالها من قبل الفرنسيين ، رفض العمل في خدمة نابوليون بونابرت ، واضطر إلى ترك مصر ، والسفر إلى إنكلترا . وقد استغل وجوده في إنكلترا ، فدرس ، في جامعتي لندن وكامبريدج ، اللغات الشرقية والعلوم الإسلامية ، وتخصص بالأدب العربي . ثم عاد إلى حلب ، مرة أخرى ، فواصل فيها دراسة اللغة والأدب العربيين وتضلع منهما ، حتى أخذ يتحدث العربية الفصحى واللهجات الدارجة بطلاقة . وفي حلب ، أيضاً ، إنصب اهتمامه على دراسة تاريخ العرب والمسلمين وجغرافية الجزيرة العربية ، إستعداداً للقيام برحلة طويلة ، في الجزيرة العربية وأفريقيا . وقد رحل بورخارت ، ثانية ، إلى مصر ، حيث قابل فيها محمد علي باشا الكبير ، الذي أعجب بشخصيته وعلمه واطلاعه الواسع ، وساعده على تحقيق رحلته إلى الحجاز . وأثناء إقامته بجدة ، وافت المنية الشيخ سعوداً ، زعيم الثورة الوهابية ، فانتهز الفرصة ، وسافر إلى مكة والمدينة ، وأدى فريضة الحج[٧١] .

وقد وصف بورخارت ، في رحلته ، العلاقات السياسية ، والصراع المستمر بين الدولة العثمانية ، من جهة ، ومحمد علي باشا الكبير ، والشيخ سعود ، زعيم الثورة الوهابية ، من جهة أخرى . وختم رأيه بالتنبؤ التالي :

وعندما تضمحل سلطة الأتراك العثمانيين ، في الحجاز وهذا ما سيحدث فعلاً ، وعندما تنقطع موارد مصر عن التدفق إلى بيت المال العثماني ، بفضل حكم مستقر وحاكم قدير ، مثل محمد علي باشا الكبير ، في مصر ، فسوف يأخذ العرب بثأرهم من الخضوع ، الذي قبلوه مرغمين لقاهرهم . ومن المحتمل ان ينتهي حكم الأتراك ، في الحجاز ، إلا انه يحتاج إلى تضحيات كبيرة ، ومشاهد من سفك الدماء[٧٢] .

وفي الحقيقة ، فخلال السنوات العشر ، بين ١٨٢٦ و١٨٣٦ ، كان قد تم تخطيط سواحل الجزيرة العربية ، من قبل البعثات الإنكليزية ، وكان من نتائج هذين التخطيط والإعداد ، الهجوم الإنكليزي العسكري على عدن واستعمارها ، في حين كانت عمان قد وقعت ، قبلها ، تحت النفوذ الإنكليزي .

وفتح استعمار عدن الطريق واسعاً ، أمام الإنكليز ، لمد نفوذهم إلى جميع أنحاء العالم العربي ، وفي هذا التاريخ ، بدأ إرسال البعثات العلمية ، للتنقيب عن الآثار القديمة ، في اليمن ، وقد وصلت أول بعثة إنكليزية إلى منطقة «نجب الحجر» ، للتنقيب عن الآثار ، التي تعود إلى ما قبل الإسلام . وكان على رأس هذه البعثة ويلستيت ، الذي يعتبر أول أوروبي ، إستطاع دخول صحراء عمان وأراضيها الداخلية . وقد وصف ويلستيت ، في رحلته ، صحراء عمان والمواقع الجغرافية المهمة فيها ، كما رسم مخططات للمدن ، وحدد المسافات بين بعضها ، وقام بقياس درجات الحرارة و التغيرات المناخية . وبين حين وآخر ، كان ويلستيت يصف لنا ما شاهده وعاشه مع سكان هذه المنطقة ومدنها ، التي زارها[٧٣] .

لقد كان استعمار عدن بداية للاستعمار الإنكليزي في العالم العربي . ففي ١٨٣٩ ، تم احتلال جزيرة بريم ، من قبل الجيش الإنكليزي . وهي ذات موقع

إستراتيجي مهم ، لوقوعها في مضيق باب المندب ، الذي يعتبر بوابة البحر الأحمر الرئيسية . وعندما احتل الإنكليز عدن ، أسسوا فيها أول قاعدة عسكرية ، بعد أن أخذوا موافقة السلطات على ذلك . وبعدها ، أخذوا يمدون نفوذهم الاقتصادي والسياسي إلى مدن الخليج . وقد استخدم الإنكليز تكتيكاً آخر غير مباشر . فبينما كانت أوروبا تتعامل مع تجار الرقيق والقراصنة ، منذ القرن الثامن عشر ، إستغلت إنكلترا حركة تحرير الرقيق ، التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر ، وبدأت بمحاولاتها للسيطرة على التجار ، من طريق القضاء على القرصنة ، وتقديم النصائح والإرشادات الاقتصادية لهم[٧٤] . وبهذه الطريقة ، إستطاعت بريطانيا تغطية أطماعها الاقتصادية والسياسية التوسعية ، في هذه المنطقة . وسرعان ما أصبحت منطقة الخليج وجنوب الجزيرة العربية ، تحت النفوذ والحماية البريطانيين . وقد استغل كثير من علماء الآثار والمستشرقين والديبلوماسيين ، وجود الإنكليز في جنوب الجزيرة ، فرحلوا إلى هناك ، للبحث والتنقيب عن الآثار الحضارية القديمة . ففي ١٨٣٦ ، رحل عالم الآثار الفرنسي أميل بوتا ، الذي كان يعمل كمستشار ديبلوماسي ، في القنصلية الفرنسية في الإسكندرية ، إلى اليمن ، ومن اليمن رحل إلى العراق حيث زار بغداد والموصل ، ثم انتقل إلى طرابلس ، فالقدس . وكان الارتباط بين العلم والديبلوماسية وثيقاً ، وذلك لتبرير البعثات الاستعمارية وأهدافها ، التي تقوم بالتنقيب عن الآثار القديمة ، وتكوين علاقات مع العشائر والتجار . ومن المعروف ، أيضاً ، أن أغلب الموظفين الكبار ، الذين كانوا يعملون في السفارات والقنصليات الأوروبية ، خلال القرن التاسع عشر ، كانوا من العلماء والمستشرقين ، وبصورة خاصة في القنصليات الإنكليزية والفرنسية . وكان أميل بوتا من أولئك العلماء ، الذين رحلوا ، على رأس بعثة علمية ، من قبل حديقة الحيوانات في باريس ، للبحث في التاريخ الطبيعي لمصر وسيناء واليمن . وقد ساعدته الظروف ، حينذاك ، لجهة الاستقرار السياسي النسبي ، الذي ساد الجزيرة العربية ، فقام بإعداد بعض

البحوث والتقارير عن التاريخ الطبيعي لليمن . وفي الوقت نفسه ، إستغل بوتا الظروف السياسية القائمة والخلافات العشائرية ، فأقام علاقات وطيدة مع الشيخ حسن ، أحد رؤساء العشائر الكبيرة ، الذي كان بينه وبين إمام صنعاء خلافات حادة ، مما جعله يتقرب إلى إبراهيم باشا ، إبن محمد علي باشا الكبير . وكانت هذه العلاقة ، قد وفرت له إمكانية زيارة أجزاء كبيرة من الأراضي الجبلية في اليمن . وبمساعدة من جنود الشيخ حسن وخدمه ، إستطاع ، أيضاً ، الوصول إلى قمة جبل سبأ ، الذي لم يستطع فورسكال الوصول إليه ، من قبل . إلا أن الفرصة لم تسنح لبوتا لزيارة الأماكن المقدسة ، في مكة والمدينة ، وذلك لسبب أن الحجاز ، أصبح منذ ١٨٤١ جزءاً من اليمن ، وخضع لسلطة الدولة العثمانية ، وبات عليه أن يحصل على فرمان من السلطان ، لزيارة مكة والمدينة[٧٥] .

لقد زاد الاهتمام باكتشاف اليمن السعيدة ، وتركزت البحوث والدراسات حول دراسة العهد القديم ، وتاريخ المنطقة وآثار الصابئة والحميريين والسبئيين ، التي تمتد إلى القرن الثاني ، قبل الميلاد . وكان من أوائل المهتمين بآثار اليمن ، أرنود الذي تخصص في آثار الصابئة ، في مأرب ، وحلل كتاباتهم . ثم تبعه هلفي ، العام ١٨٧٠ ، الذي رحل إلى مأرب ونجران ، متقمصاً شخصية تاجر يهودي . وقد استطاع هلفي الحصول على ستمائة لوح كتابي قديم ، من ألواح مأرب ونجران . كما رحل أدولف فون فريدة إلى حضرموت ، ومنها استطاع التوغل في الصحراء الجنوبية . وكان أول أوروبي ، إستطاع دخول حضرموت ، وتجول في صحرائها . وكان فريدة ، في رحلته إلى حضرموت ، قد تقمص ، أيضاً ، شخصية مصري مسلم ، يريد زيارة ولي من الأولياء . وهذا ما زاد في شكوك الناس فيه ، فألقي القبض عليه ، عند عودته من الصحراء إلى حضرموت ، وأرسل إلى السجن ، في المقلّع . ولم يعد فريدة إلى بلاده ، ولم يجد أحد له أثراً ، يكشف عن نهايته . وقد ازدادت الشكوك في الرحالين الأوروبيين ، بعد إلقاء القبض على فريدة ، وأصبح من

الصعب جداً على أي أوروبي مسيحي ، أن يلج هذه المنطقة ، حيث ازداد كره الناس لهم بعد أن انكشفت نياتهم ، خصوصاً بعد أن احتلت إنكلترا عدن ، وامتد نفوذها إلى أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة العربية . وقد تصور فريدة ، مثلما فعل أوروبيون آخرون ، أنه في تقمصه شخصية مسلم ، يمكنه تغطية سلوكه وحركاته . وإذ استطاع فريدة أن ينجح في عمله هذا ، في الصحراء ، وبين القبائل البدوية ، فإنه لم يستطع تحقيق نجاح في مدينة كبيرة كحضرموت ، المملوءة بالتجار ورجال الدين والعارفين وعيون الأمراء . فلا بد أن الامتحان ، هنا ، كان أصعب وأدق ، فلم يكن من الصعب أن يكتشف المرء ، من سلوكه وتصرفاته ، ولغته ، على الأقل ، أنه ليس عربياً وغير مسلم . وقد اعتقد فريدة ، أنه يكفي للمرء أن يتشهد بوحدانية الله ويعترف بنبوة رسوله وبكتابه ، حتى يصبح مسلماً .

ويبدو أن فريدة ، كان قد درس وتعرف بالفرائض الدينية ، التي يقوم بها المسلمون ، واطلع على عادات وتقاليد أهالي حضرموت ، غير أنّه لم يعرها اهتماماً . فقد كتب ، في رحلته إلى حضرموت ، التي صدرت ، العام ١٨٧٠ :

> إن المسلمين هناك ، يتبعون فرقتين دينيتين مختلفتين في طقوس الوضوء . فالحنفية تغسل يديها حتى العكوس ، وأرجلها حتى الركبتين . في حين تغسل الشافعية يديها أكثر من الحنفية بأربعة أصابع .

ويذكر فريدة ، أيضاً ، أن «سكان المدينة ، لهم طقوس وعادات وتقاليد دينية تافهة ، وليس لها معنى» . وقد أغفل أن أهمية الطقوس ، لا تأتي من كونها طقوساً فحسب ، بل لكونها تستند على عقيدة أولاً ، وليس من السهل تغييرها ، ولكونها عادات اجتماعية ، تلعب دوراً مهماً في حياة الناس . وبالنسبة إلى فريدة ، فإن «العقيدة الدينية لهؤلاء الناس ، ليست سوى هذه الحركات الشكلية ، التي لا طعم لها»(٧٦) ، حسب تعبيره . وبهذا أثبت فريدة ،

من خلال أحكامه الشخصية ، وأقواله وسلوكه ، أنه رجل متعصب ، ومتأثر بأيديولوجية العصور الوسطى والحروب الصليبية .

وبالأسلوب والعقلية نفسهما ، رحل هاينرش فون مالتزان وهو أحد نبلاء فارتنبرغ ، في ألمانيا . وقد بدأ مالتزان رحلته ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، فزار إيطاليا وبلجيكا وإنكلترا وفرنسا . وفي إنكلترا ، دخل جامعة لندن ، ودرس علوم الشرق ، وتعلم اللغة العربية . ثم رحل إلى الشرق ، فتجول في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا . وقد وصف مالتزان ، في رحلته التي نشرها بين ١٨٦٣ و١٨٧٢ ، مدن الحجاز وجنوب الجزيرة العربية ، وبصورة خاصة مدينتي مكة والمدينة . وكان مالتزان ، خلال سفره إلى مكة والمدينة ، العام ١٨٦٠ ، قد تقمص شخصية جزائري مسلم ، فاشترى جواز سفر جزائرياً ، وبذلك استطاع الحصول على تأشيرة دخول إلى مكة ، و«القيام بفرائض الحج» . غير أن سلوكه وتصرفاته أثارا الشكوك حوله ، فاضطر إلى الهرب من مكة ، بعد أن كشفت حقيقته .

ولا بد لنا أن نشير ، أيضاً ، إلى رحلات كارل ماي (١٨٤٢ ـ ١٩١٢) الوهمية إلى الشرق ، والتي تعتبر ظاهرة فريدة ومثيرة في أدب الرحلات ، في ألمانيا ، حيث كان لرحلاته تأثير واسع في صياغة صورة الشرق «الخيالية» لأجيال متعاقبة . وتصدرت رحلاته قائمة الكتب الألمانية المطبوعة ، والمبيعة عموماً ، إذ بلغ عدد النسخ المبيعة أكثر من خمسين مليون نسخة . وكان كارل ماي قد اصطنع لنفسه صورة أيديولوجية تبشيرية غامضة ، واتخذ من الشرق وسيلة لإبراز هذه الأيديولوجيا . وما زال كتابه «*عصر الصحراء*» (Durch die wüste) ، الذي صدر منه ستة أجزاء متتالية ، بين ١٨٧٨ ـ ١٨٨٨ ، المرجع الذي يطل منه الألمان على عالم الشرق الفسيح . غير أن الغريب والمهم معاً ، هو أن كارل ماي ، كتب رحلاته عن الشرق ، قبل أن تطأ قدمه أرض الشرق ، في آخر أيام حياته ، إذ رحل إليه العام ١٨٩٩ ، حتى يثبت لقرائه أن رحلاته ،

لم تكن وهمية ، وادعى دوماً أنه بطل رواياته[٧٧] . وقد صدّق دعواه ، حتى إنه صدق نفسه ، أيضاً ، بعض الأحيان . ومن الملاحظ ، أيضاً ، أن كارل ماي ، كان سجيناً في فترة شبابه ، فأخذ يلتهم الكتب والروايات ، خصوصاً كتب التاريخ والرحلات والشعوب والحضارات ، للتعرف بتاريخها وعاداتها وتقاليدها . وقد تراكمت عنده معرفة كمية هائلة من المعلومات الإثنولوجية عن المجتمعات والشعوب والحضارات المختلفة ، وبدأ بكتابة رحلاته ومغامراته الوهمية ، في عالم خيالي فسيح ، حيث رحل في بلاد العرب والفرس والكرد ، مثلما رحل في بلاد الهنود الحمر ، في أميركا ، وبلاد النوبة ، في شرق أفريقيا ، وغيرها . وقد وصف ، في رحلاته ، «*عبر الصحراء*» ، مغامراته ، بعد أن عثر ، صدفة ، على جثة قتيل مع خاتم وقصاصة ورق . وهكذا ، تتحول الرحلة إلى مغامرة مملوءة بالحوادث والوقائع والأحداث المتناقضة والمفاجآت ، لتبرز فجأة مغامرة جديدة تغير اتجاه الرحلة . وتتوالى المغامرات ، بانتقاله من إستانبول إلى بغداد ، ثم إلى الجزيرة العربية . إن عالم كارل ماي ، هو عالم الأساطير ، ذلك العالم المملوء بالمتناقضات ، الذي يقسم البشر إلى طيبين وأشرار ، نبلاء وخبثاء ، شجعان وجبناء . هذه الثنائية الأخلاقية ، تعكس ، بشكل بسيط ، فكرة الصراع الأزلي بين الخير والشر ، مثلما تعكس الفضيلة بشكل فظ أحياناً .

ينطلق كارل ماي ، على جواده ، عبر الشرق والغرب ، ليتعرف بالبلاد والعباد ، وبعادات الشعوب وتقاليدها ، بالجبال والسهول ، يخرج من مغامرة ، ليدخل في أخرى ، ويفعل مثلما فعل ملك «أنور» ، أي أشور بانيبال و«رينالدو» ، في معاقبة الأشرار ومساعدة الطيبين والضعفاء ، مثل فرسان العصور الوسطى ، لأن قلبه «مفعم بالمبادئ الأخلاقية المسيحية» ، ولأنه «متحضر بين أجلاف غلاظ» ، ولأنه «مسيحي مؤمن وسط آخرين يعتنقون ديانات أخرى» . وفي وسط المعارك المتناقضة ، بين المسلمين ، تتاح له الفرصة

لعرض «ماهية العقيدة المسيحية» ، وهو ، بهذا ، مبشر من المبشرين . ويقارن ، أحياناً ، بين الشعوب ، وبين الديانات . فمثلاً ، يقارن بين مبدأ الثأر ، عند البدو ، وعمود التعذيب عند الهنود الحمر ، ومبدأ الحب والإيثار ، في المسيحية . ومع ذلك ، فلا غضاضة ، عنده ، من أن يكون «أعظم الأوغاد في شراذم المسيحيين الفاسدين ، المتظاهرين بالدين»[٧٨] . هذا البرنامج الأخلاقي - الوعظي مشحون ، في الوقت نفسه ، بأحداث ومناقشات وأفكار وشروح إثنولوجية ، مع وصف بسيط للبيئة الاجتماعية والطبيعية . وفي الحقيقة ، إن رحلات كارل ماي وشخوصه ، كلها خيالية ، في وجودها وتكوينها وماهيتها ، وهي لا تتعدى حدود الوصف الخيالي . كما أن هذا الخيال الغني الواسع ، هو أقوى بكثير من دعواه الدينية التبشيرية . وهو لا يكف ، خلال وصفه الخيالي عن الحديث عن الخرافات ، التي تسكن الشرق ، ولكنه لا يرفع الحجاب عنها ، وإنما يستغلها لأغراضه الخاصة . فهو يوهم الناس ، في إحدى مغامراته ، بأن طلقات الرصاص ، لا تستطيع ان تصيبه بأذى ما ، ويقدم الدليل على ذلك ، بواسطة خدعة بسيطة . وهو ، بهذا أشبه بالبهلوان .

وفي الوقت نفسه ، يعرض نفسه ذكياً ، يُعد لكل شيء عدته ، ويدخل في الاعتبار ، أيضاً ، ردود أفعال الآخرين عليه . وهو ، بهذا ، يمثل «العقل الحاسب» المدقق . كما أن علاقته بالطبيعة هي علاقة عقلانية صرفة ، ولا يتعارض ذلك ، أحياناً ، مع تغنيه بجمال الطبيعة . وأياً كان الأمر ، فالطبيعة تخضع ، عنده ، على الأعم ، لقدرة الإنسان . ومن النادر أن يعبر كارل ماي عن ضعفه أو حيرته إزاء قوى الطبيعة ، وإن لم يسعفه العقل ، فسوف يسعفه الحدس والغريزة[٧٩] . وفي الأعمال المتأخرة ، لكارل ماي ، نراه يضع قوالب أخلاقية لحركة المكان ، ومضموناً مجازياً للطبيعة في شكل منطقي منسق . غير أن هذا المعنى المجازي ، لا يعبر عن برنامج خلقي محدد سلفاً ، وإنما موجود من طريق الصدفة ، لا العمد ، وهو معنى نمطي ، مستمد من أنماط رحلات المغامرة والتسلية القديمة[٨٠] .

ومن الملاحظ ، أيضاً ، أن «الأنا» ، في أعمال كارل ماي ، تتمتع بكافة القدرات الممكنة ، في كمالها المطلق ، في ركوب الخيل وإطلاق النار ، والتفكير والمناقشة في قضايا الدين والمجتمع والأخلاق ، وتنمو هذه المقدرة مع حجم المغامرة التي يقوم بها .

وتدور أحداث ومغامرات رحلاته ، خارج نطاق أوروبا والمجتمع البورجوازي . فهو يرحل بين بدو الصحراء ، والأكراد ، في جبال كردستان . وهو مع المهدي ، في السودان ، ومع رعاة البقر والهنود الحمر ، في أميركا . وكارل ماي ، هو البطل المنتصر دوماً وأبداً على خصومه ، وهو يستعرض انتصاراته كبطل أوروبي ، في القرن التاسع عشر ، ولذلك تظهر صورة الشرقي ، عنده ، صورة مخالفة دوماً ، فالشرقي خرافي كسول ، غير موثوق به ، وهو بشكل ما غير شجاع . والمرأة الشرقية ، هي التي تؤدي جميع الأعمال . أما الرجل ، فلا شاغل له غير ركوب الخيل ، والتدخين ، وقطع الطرق ، والقتال ، والثرثرة والاسترخاء والتنبلة . وهو يردد دوماً : «فلتأخذ حذرك ، إياك أن تثق بهم» ، «إياك أن تثق بالعربي» و«لا تثق بالتركي» و«لا تثق بالإيراني» . وبالمقابل ، فإن بطل كارل ماي ، «الأوروبي» هو مثقف ، ذكي ، سريع الفهم ، ويمتلك مهارات عقلية وأسلحة فتاكة ، لا يعرفها الآخرون ، وهي من منجزات الغرب وحده(٨١) .

إن كارل ماي ، يحمل إذاً ، حكماً مسبقاً بتفوق الغرب وكماله ، وبالمقابل ، تخلف الشرق وركوده . وهو داعية ومنتصر أبداً على الآخرين . هذه هي الصورة التي رسمها للشرق ، وهي الصورة التي سادت لدى الكثير من الأوروبيين في القرن التاسع عشر .

الصورة الرابعة

عصر الأمبريالية ـ الأنثروبولوجيا والاستعمار

ليس مصادفة أن يرتبط تضاعف نشاطات واهتمامات المستشرقين والأنثروبولوجيين ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بظروف وأسباب تاريخية واقتصادية وسياسية ، خاصة وجديدة ، إذ أخذت الرأسمالية تنمو نمواً حثيثاً نحو عصر الأمبريالية ، مع تحول نظام المنافسة الحرة إلى نظام الاحتكارات الكبرى ، الذي اقتضى إعادة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ غير مباشر ، تضمن للدول الصناعية الكبرى أسواقاً جديدة ، لتصريف المنتوجات الوافرة ، وتوفر ، في الوقت نفسه ، المواد الأوليّة ، اللازمة لصناعة تلك المنتوجات ، والسيطرة على مصادر الطاقة ، وتوظيف رؤوس الأموال .

وقد استلزم هذا التوجه السيطرة على مصادر الطاقة والمواقع الإستراتيجية . وهذا بدوره ، إستلزم ، أولاً درجة من التأثير في الثقافة ، من طريق تطويعها وتوجيهها ، لارتباطها بالتاريخ والدين والحضارة . وهذا يعني التحكم في بعض اتجاهاتها المستقبلية . وكانت مؤسسات الاستشراق والأنثروبولوجيا وعلم الآثار والتبشير من الوسائل الكفيلة بهذين التحكم والتوجيه ، من طريق استخدام طرق ووسائل شتى ، من بينها طرق البحث العلمي والتربية الحديثة ، وأساليب الكتابة والنشر الحديثة ، وإرسال البعثات العلمية ، وتبادل الخبرات والتدريب .

وقد ظهرت أهمية العالم العربي ، السياسية والاقتصادية ، والإستراتيجية ، من خلال الصراع بين المصالح البريطانية والفرنسية ، للسيطرة على المنطقة

الحيوية من العالم ، خصوصاً بعد فتح قناة السويس ، العام ١٨٦٩ ، من قبل فرنسا ، وعودة النفوذ البريطاني إلى مصر . ومن جهة أخرى ، ظهرت أهمية طرق المواصلات التجارية العالمية ، ومحاولة ربط الشرق بالغرب ، بجسر يقصّر المسافة بينهما ، ويطمئن الدول الأوروبية إلى مصالحها ، الاقتصادية والعسكرية . وعلى هذا الأساس ، إندفع عدد كبير من الأنثروبولوجيين وعلماء الآثار والجغرافيين إلى البحث عن طوبوغرافية العالم العربي ، ووضعه الجيولوجي ، وديموغرافيته ، وطوائفه المختلفة . كما انطلقت وحدات عسكرية أوروبية ، للسيطرة على مناطق جديدة ، رافقتها بعثات ، ديبلوماسية وعلمية وتبشيرية ، لتنفيذ مخططات التطوير والتنمية للتأثير في المجتمعات «التقليدية الراكدة» . وقد اتجهت الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية والاستشراقية ، منذ ذلك التاريخ ، إلى دراسة المجتمعات العربية والإسلامية دراسة منهجية منظمة ، للتعرف بما بقي غير مكتشف منها ، والتغلغل في الجزيرة العربية وأطرافها ، واكتشاف ما فيها من كنوز وآثار .

لقد كانت رحلة الأنثروبولوجي البريطاني ، تشارلز دوتي ، نموذجاً فريداً لتلك الرحلات ، التي تمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، إذ بدأت العام ١٨٧٦ ، عبر دمشق ، إلى مدائن صالح ، الواقعة في الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، ومنها رحل إلى تهامة وحائل وبوريدا ، في مرتفعات نجد . ثم واصل سفره إلى الطائف وجدة ، ومن دون أية مساعدة مالية ، جامعية أو دولية . ويبدو أن دوتي ، كان مغامراً ، أراد اكتشاف عالم مجهول ، وقد وجده عند بدو الصحراء ، في الجزيرة العربية . ولم ينكر دوتي مسيحيته وأوروبيته ، مثلما فعل كثير من الرحالين الأوروبيين ، الذين تقمصوا شخصيات عربية أو إسلامية ؛ لذا ، لاقى ، جراء ذلك ، كثيراً من المصاعب ، كما لم يستطع بسبب ذلك زيارة مكة والمدينة .

لقد قدم لنا دوتي وصفاً ممتعاً للصحراء العربية ، برمالها الحارة ، وهضابها المتموجة ووديانها الفقيرة ، وسكانها ، من بدو وحضر ، بأسلوب أدبي ممتع ، ووصف سحري خلاب ، لكل ما شاهده وعاشه في الجزيرة العربية ، وقد نقل لنا صوراً دقيقة لحياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولظروف الحياة القاسية ، التي يعيشونها في الصحراء ، وما يعانونه من جراء التنقل من مكان إلى آخر ، طلباً للعشب والماء . وقد أقام دوتي علاقات طيبة مع البدو ، وكسب ثقتهم ، وشاركهم في حياتهم ، وأشاد بطيبتهم وكرمهم ومثلهم العربية الكريمة .

لقد كتب دوتي ، في رحلته إلى الجزيرة العربية ، «المغلقة في وجه الأوروبيين» أنها كانت حلماً بعيداً و«رؤيا جائع حكم عليه بالإعدام»[٨٢] . وعندما نشر رحلته ، العام ١٨٨٨ ، لاقت نجاحاً كبيراً . وقد اعتبر ، خلال الحرب العالمية الأولى ، الرائد الأول في اكتشاف الجزيرة العربية ، والسابق لـ «لورنس العرب» في معلوماته العلمية والإثنوغرافية الدقيقة ، التي استخدمت ، خلال الحرب العالمية الأولى ، إستخداماً جيداً للأهداف السياسية والعسكرية . وقد كتب لورنس ، بعد أربعين عاماً ، في مقدمته لكتاب دوتي ، «*رحلة في الجزيرة العربية*» ، أن رحلة دوتي «لم نزل نتمتع بها ، كمغامرة للقراءة والتسلية ، وأصبحت ، اليوم ، ينبوعاً عسكرياً ، ساعدنا على الوصول إلى انتصاراتنا في الشرق»[٨٣] . وفي الحقيقة ، فإن دوتي كان قد مهد طريقاً نفسياً ، إستطاع الإنكليز استخدامه لبلوغ قلب الجزيرة العربية ، وذلك بكسبه ودّ البدو وصداقتهم ، في نجد والحجاز . وذلك الطريق مؤداه علاقاته الودية بالبدو ، التي تركت ، عندهم ، إنطباعاً جيداً ، مملوءاً بالثقة والاحترام . وعلى الرغم من الاكتشافات العديدة ، التي قام بها الرحالون والأنثروبولوجيون والديبلوماسيون في الجزيرة وأطرافها ، فقد بقيت «بقعة غامضة» في خارطة الجزيرة العربية ، لم تكتشف بعد ، هي «الربع الخالي» ، التي لم تكن وطئتها قدم أوروبية ، حتى ذلك التاريخ ، وذلك لوعورة هذه المنطقة النائية ،

وخطورتها ، وصعوبة التغلغل فيها لرخاوة الرمال ، وقوة الرياح اللولبية ، التي تطمر القوافل المارة فيها ، بكاملها أحياناً ، إلى جانب خشونة البدو وغزوهم للمارين فيها . ومن الممكن أن يلاحظ المرء ، أن العثمانيين ، كانوا قد مدوا نفوذهم من شمال الجزيرة العربية حتى غربها ، في حين امتد نفوذ الإنكليز على السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة . ولهذا ، يلاحظ المرء ، بوضوح ، أن أغلب البعثات الأوروبية ، وكذلك الرحالون ، كانوا قد تركزوا في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، أكثر مما تركزوا في شمالها ووسطها ، بحكم نفوذ الإنكليز فيها ، ومساعدتهم لتلك الرحلات والبعثات .

لقد أعقبت رحلة دوتي رحلات عديدة ، كانت من أهمها رحلة غلاسر ، إلى اليمن . وكان غلاسر مستشرقاً ، أتقن اللغات ، العربية والسبئية القديمة ، إلى جانب معرفته بتاريخ العرب وتقاليدهم . وخلال رحلته ، قام بدراسة وافية لجغرافية اليمن وجيولوجية طبقات الأرض فيها ، كما ركز اهتمامه على العلاقات الاقتصادية والسياسية ، وأثرها ، في تفكك العلاقات الاجتماعية والقرابية ، بين القبائل العربية ، في اليمن ، إلى جانب دراسته لتاريخ المنطقة الحضاري ، والآثار الكثيرة ، التي تركها السبئيون . وقد جمع غلاسر ، خلال رحلته إلى اليمن ، العام ١٨٨٢ ، ألفي قطعة أثرية ومخطوطة ، من آثار حضارتي سبأ ومأرب . وعند رجوعه إلى أوروبا ، بدأ بدراسة هذه القطع الأثرية والمخطوطات ، وتحليل رموزها ، وقد وافته المنية ، دون إكمال بحوثه . وواصل علماء الآثار واللغات السبئية ، من بعده ، دراسة هذه القطع والمخطوطات الأثرية ، وفك رموزها ، وبصورة خاصة ، علماء الآثار واللغات الأميركان .

وتتضح أهمية ما كتبه غلاسر ، في رحلته إلى اليمن ، من اهتمامه بدراسة الأوضاع الاجتماعية ، في جنوب الجزيرة العربية ، والعلاقات السياسية ، التي تربط الدولة العثمانية بالقبائل العربية ، من جهة ، والعلاقات بين القبائل

العربية ، بعضها مع البعض الآخر ، من الجهة الأخرى . وقد أشار ، في رحلته إلى مأرب ، إلى أن إدارة المقاطعات ، التي تقع ضمن سلطة الدولة العثمانية ، في اليمن وعسير والأحساء ، ما عدا المدن المقدسة في فلسطين ، تختلف في إدارتها عما هي الحال في المناطق والمقاطعات العثمانية الأخرى ، التي تقع خارج هذه الإدارات ، وبصورة خاصة ، في أساليب الحكم ، والسيطرة السياسية ، والعلاقات الديبلوماسية ، وكذلك الشكلية . ففي الوقت الذي يجد الرحالة الأوروبي نفسه ، في المقاطعات العثمانية ، ذات الإدارة المباشرة ، في أمان تام ، لا يجد ذلك الأمان في وسط الصحراء ، أو في شمال اليمن وشرقه . وقد يعود ذلك لقوة القبائل نفسها ، وقد يرتبط بمزاج وأخلاق رؤساء القبائل أو أفرادها . فإذا كان هناك رئيس قوي للقبيلة ، فإن الأمر سيكون مختلفاً ، ومع الأسف ، كما يقول غلاسر ، فإن أكثر القبائل هناك ، يسودها النزاع والتفكك ، وعلى الرحالة الأوروبي ، أن يسوي أمره مع أكثر من قبيلة ، وأحياناً مع عشر أو خمس عشرة قبيلة ، إلى جانب أفرادها ، المختلفين أيضاً . وعلى المرء أن يحصل ، قبل كل شيء ، على ثقتهم واحترامهم ، حتى يكون في مأمن منهم . وإذا لم يحصل على احترام واحد منهم ، على أقل تقدير ، فسوف يواجه كثيراً من الصعوبات والمخاطر ، غير المحددة[٨٤] . ومن الواضح أن كثيراً من الأوروبيين ، لا يبدون اهتماماً بعادات وتقاليد القبائل وخصائصها الحضارية ، وإنما يوجهون اهتمامهم نحو الصعوبات ، التي يمكن أن تقابلهم خلال سعيهم للوصول إلى أهدافهم الأساسية ، مدفوعين بغرور متعال وأحكام مسبقة ، يبعدانهم عن الواقع .

وقد أعقبت رحلة غلاسر ، خلال التسعينات ، من القرن التاسع عشر ، رحلتان إلى حضرموت . كانت الأولى من قبل ليوهيرش ، من برلين ، الذي توغل في مدن حضرموت الداخلية . أما الثانية ، فكانت من قبل الرحالة الإنكليزي ، بينت إلى حضرموت أيضاً . وقد استهدفت الرحلتان دراسة الأراضي الزراعية ونباتات المنطقة ، وطرق الزراعة التقليدية فيها .

غير أنه ، في مطلع هذا القرن ، حدث تحول مهم في سياسة الدول الاستعمارية ، إنعكس في التخطيط الأكاديمي ، العلمي ـ العسكري المنظم . فبعد امتداد النفوذ الإنكليزي إلى مناطق عديدة في العالم العربي ، وحدوث الصراع الإنكليزي ـ العثماني على المنطقة ، ومحاولات ألمانيا القيصرية مد نفوذها في الشرق ، واتساع الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية ، لشمال الجزيرة العربية وشرقها ، وبصورة خاصة بعد اكتشاف النفط في هذه المنطقة ، أخذت الدول الأوروبية ترسل المزيد من البعثات العلمية والعسكرية المتخصصة ، لتثبيت أرجلها في هذه المنطقة ، والقيام بدراسات جيولوجية ، تمهيداً للتنقيب عن النفط فيها . وقد ساعد على ذلك وجود خط قطار دمشق ـ الحجاز الإستراتيجي ، لربط شمال الجزيرة العربية بمدن الحجاز .

وتعتبر رحلات ماكس فون أوبنهايم من أهم الرحلات ، في بداية هذا القرن . وكان أوبنهايم من كبار رجال الأعمال الألمان ، الذين قاموا بعدد من الرحلات إلى الجزيرة العربية ، بين ١٨٩٢ و١٩٤٩ . وقد اهتم ، منذ صباه ، بالشرق ، متأثراً بقصص ألف ليلة وليلة ، وأخذ يدرس اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، إلى جانب اهتمامه بالحضارات العليا ، في بابل وأشور ، وأصبح عالماً أثرياً ، ومستشرقاً مشهوراً . وكانت نتيجة رحلاته العديدة ، إلى شمال الجزيرة العربية ، كتابه الذائع الصيت «*البدو*» ، الذي نشره في أربعة مجلدات ضخمة[٨٥] ، عالج فيها خصائص المجتمع البدوي في الجزيرة العربية ، وأسلوب الحياة الرعوي ، من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ثم بحث توزيع القبائل العربية ، وانتشارها في كل من العراق وسوريا والأردن وسيناء والحجاز ، وديار كل قبيلة منها ، واتجاه هجرتها ، ومناطق تجوالها . كما وضع مخططات دقيقة لأنساب القبائل العربية ، وعلاقاتها السياسية والقرابية ، والصراعات الدائرة بينها . ويعتبر كتاب «*البدو*» ، عملاً أنثروبولوجياً موسعاً عن القبائل العربية في شمال الجزيرة .

لقد أقام أوبنهايم وقتاً طويلاً ، وتجول في جميع نواحي الجزيرة العربية ، وأقام علاقات وطيدة مع شيوخ القبائل ، في بادية الشام والجزيرة ، بين دجلة والفرات ، من الناحية الشمالية . كما كان أوبنهايم صديقاً مقرباً لكثير من الملوك والرؤساء العرب ، الذين ساندوا إقامته ورحلاته وأعماله ، كما سانده الإنكليز والفرنسيون ، إضافة إلى الألمان ، الذين أرسلوه ، لأهمية المعلومات الإثنوغرافية الدقيقة ، والبحوث الأنثروبولوجية المهمة التي أعدها . كما قام أوبنهايم ، علاوة على ذلك ، بوضع خرائط طوبرغرافية وعسكرية دقيقة ، لشمال الجزيرة العربية ، التي أصبحت ، فيما بعد ، مصدراً أساسياً للعسكرية والديبلوماسية الانكليزيتين ، واستفادت منها اتفاقية سايكس ـ بيكو ، في تقسيمها منطقة المشرق العربي بين إنكلترا وفرنسا . كما كان كتاب «*من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي*» ، الذي نشره ، العام ١٩٠٠ ، من الكتب الإثنوغرافية المهمة أيضاً ، الذي وصف فيه رحلته من الجزيرة ، الواقعة بين دجلة والفرات ، حتى الخليج . وقد حدثنا فيه مفصلاً عن إقامته بين قبائل شمر ، في الجزيرة ، وعلاقاته الوطيدة بها . وأشار أوبنهايم ، في الجزء الثاني من رحلته ، إلى اهتمام ألمانيا وتركيا العثمانية باقتصاديات العالم العربي ، وقدم مقترحات إلى الدولة العثمانية لاستثمار منطقة الجزيرة ، التي مر ذكرها ، زراعياً واقتصادياً ، وذلك بإرواء هذه الأراضي الواسعة ، واستثمارها استثماراً زراعياً نافعاً . كما وضع مخططاً لاستيطان البدو الرحل ، واستقرارهم ، وتحويلهم ، بالتدريج ، إلى الزراعة . وقد أشار إلى أن البدو ، الذين لا يحبذون الاستقرار ، من الممكن تهجيرهم إلى الجنوب . وإذا كان في نية الحكومة العثمانية السيطرة عليهم والتخلص من مشاكلهم ، فيجب دفعهم إلى الاستقرار ، وذلك بنقلهم إلى المناطق الزراعية ، ليكونوا أيدي زراعية عاملة يمكن استغلالها والاستفادة منها جيداً ، وإن التجارب الكثيرة ، علمتنا أن الشعوب الزراعية ، تتكاثر بسرعة ، حينما تكون الأرض الزراعية ، التي

يفلحونها ، جيدة وغنية . ومن جهة أخرى ، لا يمكن تقدير ما تحتاج إليه هذه الشعوب الطموحة ، من المصنوعات الأوروبية ، وما تستورده من البضائع والحاجات واللوازم من أوروبا . وعلى أية حال ، فإن الفائدة لا بد أن تعود على الدولة ، التي ستقوم بهذه الخطوات ، وبصورة خاصة ، حين تقوم ببناء سكة حديد ، تربط هذه المنطقة بأوروبا[٨٦] . وفعلاً ، قامت ألمانيا بمد سكة حديد بغداد ـ برلين (أكسبريس الشرق) بعد أن حصلت على امتياز من السلطان عبد الحميد ، العام ١٩٠٣ . وكان من المفروض أن يمتد هذا الخط إلى البصرة ، ومنها إلى نقطة أخرى ، على الخليج ، من أجل السيطرة على نهري دجلة والفرات ومدن الخليج ، واستغلال ثرواتها الاقتصادية ، ومن ثم بناء قواعد ألمانية ، تشرف على المصالح البريطانية ، في الخليج ، الذي يعتبر بوابة المحيطات الجنوبية . وقد بدأت ألمانيا القيصرية فعلاً بإنشاء قنصلية لها ، في البصرة ، وأخرى ، في بوشير ، بإيران ، على الجانب الشرقي من الخليج . ثم قامت ألمانيا بتوسيع نشاطها التجاري ، فأنشأت شركات عديدة لها ، في البصرة ، كان من أهمها شركة هامبورغ للملاحة ، العام ١٩٠٥ ، كما أنشأت خطاً بحرياً للسفن التجارية الألمانية ، يربط الخليج بالموانئ الأوروبية .

إن اهتمام ونشاط ألمانيا القيصرية هذين ، كانا قد أثارا قلق الإنكليز . وقد عبر عن ذلك القلق بيرسي سايكس بقوله : إن السيطرة على الخليج «تعادل ، في أهميتها ، السيطرة على الشرق الأوسط تقريباً»[٨٧] .

لقد بدأ النفوذ الألماني ، حين أخذت ألمانيا تبني أول قاعدة تموين لها ، في جزيرة أبو موسى ، في الخليج ، حيث حصلت شركة فونكهوس ، العام ١٩٠٦ ، على امتياز ، من حاكم الشارقة ، باستخراج خامات الحديد فيها ، منافسة بذلك شركة ستريك البريطانية ، التي قامت باستخراج أوكسيد الحديد من جزيرة هرمز ، في الخليج أيضاً . إلا أن ألمانيا ، لم تستطع مد نفوذها ، هناك ، بسبب المنافسة الحادة لها ، من قبل بريطانيا ، التي استعمرت المنطقة منذ

مدة طويلة . وقد استطاعت بريطانيا أن تستعمل وسائل ضغط شديدة ، على شيخ الشارقة ، لحمله على تصفية أعمال الشركة الألمانية ، المارة الذكر . وفي الحقيقة ، إن الجزر المتفرقة في الخليج العربي ، كانت مطمح أنظار دول عديدة ، لأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية . ففي العام ١٨٨٧ ، كانت إيران قد احتلت ميناء لنجة ، الذي يقع على الساحل الشرقي للخليج ، مما أدى إلى فقدان أهميته ، فتحولت السفن عنه ، وأخذت ، منذ ذلك الحين ، ترسو في جزيرة أبو موسى . ومن جهة أخرى ، حاولت ألمانيا مد خط سكة حديد دمشق ـ الحجاز ، إلا أن الحرب العالمية الأولى ، حالت دون إكماله ، إذ استطاعت إنكلترا كسب الحجاز إلى جانبها ، ضد تركيا العثمانية . وقد تم تمديد سكة الحديد إلى المدينة ، بعد الحرب العالمية الأولى ، بمساعدة المهندسين الأوروبيين . وكانت هناك محاولات أخرى لمد سكة الحديد إلى اليمن . وقد وضعت الخرائط اللازمة لذلك ، كما تم مسح جزء كبير من ميدان العمل ، إلا أن تلك المحاولات لم تتحقق[٨٨] .

ومن جهة أخرى ، إستمرت رحلات الأوروبيين وبعثاتهم العلمية إلى المنطقة ، على الرغم من اندلاع الحرب العالمية الأولى ، إذ رحل المستشرق ألجيكي موزيل إلى نجد ، ووصل العام ١٩١٥ ، إلى جبل شمر ، في شمال العراق . وكان زعيم الثورة الوهابية ، الشيخ ابن رشيد ، قد وقف إلى جانب الدولة العثمانية ، فيما وقف عبد العزيز بن سعود ، الذي سيطر على القسم الأوسط من نجد ، إلى جانب الإنكليز . وقد تجول موزيل بين ديار عشائر عنزة ، وجمع معلومات أنثروبولوجية واسعة عن كل ما يتصل بحضارتهم المادية والمعنوية .

وقد ازداد الاهتمام بدراسة البدو والبداوة ، من قبل المستشرقين والأنثروبولوجيين ، باعتبار أن مجتمع البدو عالم غريب ، ليس من السهل

دخوله واكتشاف أسراره ، خصوصاً أن شهرة «خيالة الصحراء» قد عمت أوروبا ، خلال ثورة الوهابيين ، ودورهم السياسي والعسكري ضد العثمانيين .

وكان سيل الرحالين والمغامرين ، يتدفق إلى الصحراء ، وكان أول المغامرين هو أرنست كليبل ، الذي تقمص شخصية بدوي ، يبحث عن مغامرة غريبة ، بين بدو الصحراء . وقد تبعه كارل روزان ، أحد هواة الخيول العربية ، الذي تزيّا بزي بدوي أيضاً ، وتجول في شمال الجزيرة العربية . وقد نشر روزان مذكراته ، في كتاب سماه «*في أرض الخيم السوداء*» . أما الأنثروبولوجي الألماني ، لودفيج فرديناند كلوس ، فرحل إلى شمال الجزيرة العربية ، وأقام ، في نجد ، وقتاً طويلاً ، من أجل القيام بدراسة أنثروبولوجية ميدانية ، لنمط الحياة اليدوية ، في الصحراء الرملية القاسية . وقد توصل ، من خلال دراسته ، إلى منهج بحث جديد «في علم نفس الشعوب» (Völlker psychologie) ، وقدم نظرية قامت على أساس تجاربه العلمية ، التي استقاها «من الحياة مع أناس من نوع غريب» ، ونشر نظريته ، في كتاب سماه «*بدوي بين البدو*»[٨٩] .

غير أن أهم رحالي هذا القرن ، هو الجنرال جون فلبي (١٨٨٥ ـ ١٩٦٠) ، الذائع الصيت ، الذي ارتبطت شهرته باستعمار العراق والحجاز ، والملقب بـ «الملك البريطاني ، غير المتوج ، في الجزيرة العربية» . فبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، العام ١٩١٤ ، بدأت بريطانيا حربها ضد الدولة العثمانية ، لتركز مصالحها الاقتصادية والسياسية والعسكرية في الخليج العربي . ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤ ، بدأت الحملة العسكرية على العراق ، تشق طريقها ، عبر شط العرب . وكان قائد الحملة البريطانية هو السير برسي كوكس ، الذي عين ، بدوره ، الجنرال فلبي مساعداً مالياً وإدارياً له . وبعد احتلال البصرة ، من قبل الجيوش البريطانية ، تعلم فلبي اللغة العربية ، وأخذ يتجول في المناطق الجنوبية من العراق ، ليطلع على المنطقة عن كثب ، ليستكمل احتلال العراق . وفي السابع من أيار/ مايو ١٩١٦ ، وصل فلبي إلى

بغداد ، بعد احتلالها من قبل الإنكليز ، وعين مساعداً ثانياً للحاكم الإنكليزي في العراق ، السير برسي كوكس .

كان أول لقاء ، بين ابن سعود والجنرال فلبي ، في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٦ ، في البصرة ، عندما جاءها ابن سعود بدعوة من السير برسي كوكس . ثم سافر فلبي إلى الحجاز ، مع بعثة بريطانية خاصة ، فوصل ميناء العقير ، في الأحساء ، في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧ . وكانت مهمة البعثة البريطانية ، هي وضع الخطط العسكرية ، لمساعدة ابن سعود على مجابهة ابن رشيد . وكان هذا اللقاء بداية لتعرف فلبي بأرض الحجاز ، وكذلك بابن سعود . ويبدو أن بريطانيا ، كانت قد وجدت ، في الجنرال فلبي ، رجلها السياسي المحنك ، الذي يستطيع القيام بمهمة صعبة ، في الصراع الدولي على الجزيرة العربية ، خصوصاً بعد أن آنست فيه الاستعداد الكافي لذلك .

وفي الوقت الذي أرسلت فيه بريطانيا الجنرال فلبي ، كمساعد لابن سعود ، في نجد ، أرسلت لورنس (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) ، الملقب لاحقاً «لورنس العرب» ، إلى مكة ، ليكون مساعداً على الوقوف في وجه الجيش التركي . وكانت بريطانيا ، قد وعدت الشريف «حسين» بتأسيس دولة عربية ، تضم «الأقاليم العربية» ، الواقعة تحت الحكم العثماني ، وهي الحجاز وسوريا وفلسطين والعراق ، مقابل إعلان «ثورة عربية» ضد الدولة العثمانية ، والتعاون مع إنكلترا في الهجوم على سوريا وفلسطين . وعندما أعلن الشريف «حسين» ثورته ضد الدولة العثمانية ، إصطدمت الوعود البريطانية المزيفة باتفاقية سايكس ـ بيكو ، للعام ١٩١٦ ، والتي نصت على حصول فرنسا على سوريا ولبنان ، مقابل اشتراكها في الحرب ضد الدولة العثمانية .

لقد كتب مارك سايكس ، أحد المفاوضين الكبار في تقسيم «الوزة المريضة» ، إلى اللورد كيرزن ، يقول :

طموحي أن يكوّن العرب أول كومنولث ، وليس آخر مستعمرة لنا ، ذات بشرة برونزية . إن العرب يتحركون ضدك ، إن حاولت أن تقودهم ، وهم ، في هذا ، عنيدون ، كاليهود تماماً ، ولكن يمكنك قيادتهم ، كيفما تشاء ، من دون استخدام القوة ، إذا أبديت شيئاً من اللامبالاة .

هكذا كانت الذهنية التي هيمنت ، حينذاك ، والتي رسمت صورة واضحة لعجز العرب ، وقصورهم في التحرر والاستقلال . لقد كانت بريطانيا ، التي أرست دعائم أمبراطوريتها في الهند والجزيرة العربية ، قد هيأت نفسها ، بكل نشاط ، للمساهمة في الانتصار العسكري للحلفاء على الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا ، وفي الوقت نفسه ، خلقت الشروط للوصول إلى أفضل اقتسام ممكن للأمبراطورية العثمانية المحتضرة . وقد اعترف «لورنس العرب» ، المار ذكره أعلاه ، «بأن من الأفضل للمرء أن يحنث في وعده ويربح ، من أن يفي به ويخسر» . وهكذا ، تلاشت أحلام العرب بالاستقلال وتكوين دولة عربية موحدة ، وقسم العالم العربي ، بمهارة فائقة ، فحصلت فرنسا على الساحلين السوري واللبناني ، وحصلت إنكلترا على العراق ، الغني بالنفط ، وكذلك على الأردن وفلسطين ، التي أصبحت تحت الانتداب البريطاني . أما حيفا ويافا ، فقد أسقطتا من فلسطين ، في الوقت الذي أعلن فيه اللورد بلفور ، العام ١٩١٧ ، قيام وطن قومي لليهود في فلسطين .

وفي الوقت الذي نكثت فيه بريطانيا بوعودها للشريف «حسين» ، وجهت الجنرال فلبي إلى ابن سعود . وقد قام فلبي بدور مهم في مساعدة ابن سعود على الهجوم على الحجاز ، وتقديم الدعم السياسي و العسكري له . وهكذا ، سقطت جدة في كانون الأول/ ديسمبر من العام ١٩٢٥ ؛ وبذلك ، تحطمت آمال الشريف «حسين» في إقامة دولة عربية كبرى ، وأصبح فلبي أحد أقوى الموجهين لسياسة ابن سعود ؛ ومنذ ذلك الحين ، طارت شهرته في العالم

العربي . وقد أعلن فلبي إسلامه ، وسكن مكة ، وأصبح مستشاراً شخصياً للملك ، عبد العزيز ، كما لعب دوراً مهماً في ترسيخ المملكة العربية السعودية ، وفي تأسيس شركة أرامكو للبترول ، في الظهران ، العام ١٩٣٣[٩٠] .

أما شهرته العلمية ، في الأوساط الأكاديمية ، فتعود إلى رحلاته الاستشكافية العديدة ، التي قام بها إلى شيبا والأراضي المرتفعة ، في اليمن العامين ١٩٣٦ و١٩٣٧ ، وكذلك رحلته إلى أرض مدين ومرتفعات نجد والربع الخالي وغيرها ، التي أعطته مكانة دولية متميزة ، واعتبر ، بموجبها ، أهم وأشهر رحالي هذا القرن .

بدأ فلبي رحلته من مكة ، متجهاً إلى نجران بمحاذاة طريق القوافل التجارية القديم المشهور ، الذي يربط شمال الجزيرة العربية بجنوبها . وقد مرّ بأطلال شبوه القديمة ، ورسم مخططاً للطرق التجارية ، وصور أهم الآثار والرموز الكتابية فيها . ثم واصل فلبي رحلته إلى وادي حضرموت ، ومنه إلى الساحل الجنوبي . وفي طريق عودته إلى مكة ، مرّ بسد مأرب المشهور ، في اليمن ، ورسم له مخططاً ، وصور أهم الآثار المتبقية منه . وبهذه الرحلة ، أتم استكشاف أهم منطقتين في الجنوب الغربي العربي . وعند عودته إلى نجران ، وضع مخططاً للحدود الجبلية ، بين السعودية واليمن ، حتى أقصى الساحل الجنوبي . وقد قدم فلبي نسخة من المخطط الكلي ، الذي رسمه ، إلى الملك ابن سعود . وتظهر الأهمية السياسية والعسكرية لما كتبه ورسمه وخططه فلبي ، في رحلات وخرائط ومخطوطات ، وكذلك دوره الاستعماري الخطير ، من قراءة مقطع صغير من رحلته إلى «شيبا والأراضي المرتفعة» حيث يقول :

وبإمكانية علمية وجيولوجية متواضعة ، إستطعت النفاذ إلى باطن الجزيرة العربية . وقد دفعتني الصدفة إلى أن أتخطى جميع الأخطار ، التي وقفت أمامي . وقد شدني النهم إلى المعرفة والشعور بالواجب ،

يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، إلى تسجيل كل ما أشاهده وأسمعه ، خلال رحلتي هذه ، وبأمل واحد ، هو أن أغربل حبات القمح من قشها ، وعسى أن تكون بينها مواد مفيدة ، قد بقيت بعد ، حتى يستفيد منها الجميع . ومع بساطة الأدوات العلمية ، التي كانت في حوزتي ، وقلة المعلومات ، التي استعملتها بصورة جيدة ، فقد اهتم الاختصاصيون ، في الجمعية الجيولوجية الملكية (في لندن) بما رسمته ، من طرق وجبال ووديان ، في خرائط مفيدة ، مع كون أكثر هذه الخرائط ، ما زالت ، لحد اليوم ، مجرد مخططات أولية ، كنت وضعتها على أساس إخباري ومن أشخاص آخرين[٩١] .

وفي العامين ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ، قام فلبي برحلته الاستكشافية ـ الأثرية الأخيرة ، بمساعدة معهد الآثار البلجيكي . وقد بدأت رحلته من جدة ، مروراً بنجران ، حيث قطع الهضبة الصحراوية ، غرب جبل توفيق ، مروراً بالرياض . وخلال وجوده في نجران ، جمع كثيراً من الكتابات والرموز ، المنحوتة على صخور الجبال ، ورسم مخططاً لمدينة نجران التاريخية ، كما رسم خرائط مفصلة للمناطق التي مرّ بها[٩٢] . وبعد وفاة الملك عبد العزيز ، إنتهت رحلات الجنرال فلبي في الجزيرة العربية ، وانتهت بذلك سلطته فيها ، وخرج منها طريداً ، في الخامس من أيار/ مايو ١٩٥٥ ، بعد أن اختلف مع الملك سعود ، لأمر ما زال غامضاً . وقد ترك فلبي عدداً كبيراً من المؤلفات والرحلات والخرائط والمذكرات ، التي سجلت جزءاً ، ليس يسيراً ، من تاريخ المملكة العربية السعودية .

وفي الواقع ، فإن فلبي عاش غريباً ، ومات غريباً أيضاً . وقد اعتبره الكثيرون من الألغاز ؛ فقد اختلف مع السير برسي كوكس ، مثلما اختلف مع سياسة بريطانيا ، واتهم بعرقلة مصالحها . وبعد اعتناقه الإسلام ، سمى نفسه «عبد الله» . وقد ذكر ، في مذكراته ، أن الإسلام ، كان قد اجتذبه ، منذ أيامه

الأولى ، حينما كان في الهند ، إذ تأثر بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها ، وبدا له المذهب الوهابي هو الدين المثالي ، الذي لم يجد في تعصب أتباعه ما يسوءه وينفره ، كما أنه يتوافق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع ، في أبسط صورها . وقد اختلفت الآراء حول فلبي وأهدافه ، غير أن ما اتفق عليه الكثيرون من الباحثين ، كونه نزيهاً مترفعاً عن الدنايا ، في وقت ، كان في مقدوره أن يكسب الملايين ، كما فعل الكثيرون ، غير أنه مات ، ولم يترك وراءه شيئاً يذكر ، ودفن في لبنان ، وكتب على قبره : «أعظم مكتشفي جزيرة العرب»[٩٣] .

أما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، فقد بدأت مرحلة جديدة لاكتشاف جنوب الجزيرة العربية ، وذلك مع بدايات اهتمام ملوك وسلاطين اليمن وعمان وحضرموت بالآثار القديمة ، واستدعاء البعثات العلمية وخبراء الآثار والمستشرقين لمساعدتهم على الكشف عن الخزائن والكنوز الباقية من الآثار العربية القديمة .

وكانت أول بعثة علمية ألمانية ، إلى اليمن ، برئاسة كارل رايتنس ، عالم الآثار المشهور ، وهيرمان فون فيزمن عالم الجغرافيا ثم تبعهما المستشرق الألماني ، آبتز ، وخلال الأعوام الخمسة ، التي قضتها البعثة في اليمن (١٩٢٧ ـ ١٩٣١) ، قامت بالتحريات الجغرافية والجيولوجية ، ودراسة النباتات الطبيعية . وبمساعدة من إمام اليمن ، بدأت الحفريات الأولى في معبد السبئيين ، بعد استكمال الدراسات الأولية . وقد حدثنا فيزمن ، أحد أعضاء البعثة الألمانية ، بأن إمام اليمن ، كان قد أرسل معهم ، إلى معبد السبئيين ، فريقاً من الجنود ، بقيادة الشريف سيدي عبد الله . وقد استقبلت البعثة ، هناك بحفاوة بالغة التقدير . وعندما وصلت إلى مواقع الآثار الرئيسية ، على سفح جبل ، في الجنوب ، شاهدوا رجالاً منهمكين في الحفر والبحث عن الآثار ، بصورة سريعة ، للحصول على بعض الأواني والقطع الحديدية .

وكان من المدهش الغريب ، أنهم كانوا يهدمون الجدران والأعمدة المرمرية ، والتماثيل التي تقف أمامهم ، بطرق بدائية . ولم تستطع البعثة الأثرية إقناعهم بأهمية كل جدار وحجر وطابوقة وعمود من المرمر ، لأنها آثار قديمة ومهمة وثمينة جداً . وكان علينا أن نذهب إلى سيدي عبد الله ، لتوضيح أهمية هذه الآثار ، وخطورة ما يفعلون ، وإعطاء الأوامر بالتوقف عن التهديم والتخريب ، وترك كل جزء ، من هذه الجدران والأعمدة والصخور ، في مكانه ، دون تهديمه أو تحريكه أو رميه ، إلا بموافقتنا . غير أن سرعة الرجال في الحفر والتهديم ، لم تجنبنا المخاطر ، ولم تساعدنا على المحافظة على قطع الآثار الثمينة . وفي مدة قصيرة ، كان قد تم تهريب الكثير من هذه القطع الأثرية ، من وراء ظهورنا . . وكان أجمل قطع الآثار وأثمنها هو رأس الأسد البرونزي ، الذي عثرنا عليه ، إلا أنه اختفى عن أعيننا بسرعة خاطفة . وقد وجدنا أجزاء مكسورة من رأس أسد برونزي آخر ، لا يقل جمالاً وأهمية عن الأول ، في مدينة حجا . وكان علينا أن نبحث ونفتش عن الآثار المهمة ، التي اختفت من معبد سبأ ، في كل بيت من بيوت المدينة . وقد وجدنا أن كثيراً من القطع الأثرية النادرة ، كانت قد استعملت في بناء البيوت ، أو لصقت على الجدران ، أو أنهم جعلوا من قطع الرخام الثمين أبواباً للبيوت ، أو إطارات لشبابيك الغرف[٩٤] .

وخلال قيام البعثة الألمانية بالتنقيب عن اثار معبد سبأ ، إستطاع الخبير الإنكليزي ، برترام توماس ، العام ١٩٢٨ ، والذي كان يعمل كمستشار لدى سلطان عُمان ، أن يتوغل ، في رحلته ، إلى أواسط وجنوب الجزيرة العربية . وكان توماس ، بهذا ، أول أوروبي ، إستطاع دخول مسقط وظفار ، في الجنوب ، وكذلك التوغل في الربع الخالي . وقد ذكر فلبي ، في مذكراته ، أن رحلة توماس ، كانت خيبة أمل كبيرة له ؛ إذ لم يستطع هو التوغل في الربع الخالي قبله[٩٥] .

وعلى أثر ذلك ، بدأت الدول الأوروبية تتسابق إلى إرسال البعثات الأثرية ، للتنقيب عن الآثار القديمة ، في اليمن ، فأرسلت الحكومة الهولندية بعثة شارك فيها قنصل هولندا في الحجاز ، فان مويلن مع الجغرافي الألماني فيزمن ، السالف الذكر ، إلى حضرموت ، العام ١٩٣١ . كذلك استعانت البعثة الألمانية ببعض التجار العرب ، الذين يعيشون في الهند ، بمرافقتهم إلى حضرموت . وقد بدأت البعثة بمسيرة شاقة ، فصعدت سلسلة جبال حضرموت الوعرة ، إلى ارتفاع ٢٧٠٠ م ، إلا أنها اصطدمت بقمم صخرية حادة وخطيرة جداً ، ورجعت إلى حضرموت ، من دون أن تحقق أهدافها . ولم يتم اكتشاف قمم جبال حضرموت ، إلا في مطلع العام ١٩٣٤ ، حين استطاع هانس هلفرتز ، في مغامرة فردية ، أن يصل إلى أطلال المدينة الأثرية القديمة شبوه . وفي مغامرة ثانية ، قام هلفرتز بدخول المدينة واكتشافها ، بصورة سرية . وفي شبوه ، ألقي القبض عليه ، ودخل السجن بأمر من الإمام يحيى ، إمام اليمن ، في مدينة الجديدة ، ثم أطلق ، وأبعد إلى خارج اليمن[٩٦] .

أما هارولد إنغراس ، المستشار البريطاني في حضرموت ، فقد قام ، مع زوجته ، برحلة استكشافية في المناطق الأثرية القديمة (١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) . وقد استعان بأحد وجهاء حضرموت ، وهو سيد أبو بكر القاف ، فرحل إلى أراضي المهرا الأثرية ، بعد أن تدخل بديبلوماسية حاذقة ، في شؤون القبائل المتنازعة ، واستطاع ، بعد ذلك ، أن يوقف القتال ويعقد صلحاً بينها . وكان إنغراس أول أوروبي ، إستطاع الوصول إلى أراضي المهرا ، مكتشفاً ، بذلك ، آخر ما تبقى من المناطق الأثرية ، من حضارة سبأ وجنوب الجزيرة العربية[٩٧] .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بدأت البعثات تتوالى إلى العالم العربي من جديد ، بعد توقف قصير ، بسبب الحرب . وكانت أول بعثة أثرية ، وصلت إلى الجنوب الغربي من اليمن ، هي بعثة أميركية ، بقيادة وندل

فيليبس ، مع عدد من علماء الآثار والجيولوجيين والجغرافيين ، بين الأعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ . وقد بدأت البعثة حفرياتها في أطلال قطبات ، ثم اتجهت إلى أطلال كفر ، وهي منطقة البخور المشهورة . وكانت حصيلة البعثة عدداً كبيراً من القطع الأثرية الثمينة ، والكتابات والنقوش ، التي تعود إلى حضارة سبأ . وقد كتب فيليبس ، في كتابه «*قطبات وشبيا*» عن الصعوبات والمشاق ، غير المحدودة ، التي قابلت البعثة ، وخيبة الأمل العميقة ، التي لاقتها . فعلى الرغم من حصولهم على موافقة الإمام على التنقيب عن الآثار ، فقد قطعت عنهم المعونات ، وصودرت القطع الأثرية التي جمعوها . وقد حدث ، جراء ذلك ، مشاحنات عديدة ، لوحق ، على أثرها ، فيليبس ، من قبل القبائل وجند الإمام ، فاضطر إلى الهرب إلى عمان ، حيث واصل تنقيبه عن الآثار القديمة[98] .

في الواقع ،إن ما كتبه فيليبس بعيد عن الحقيقة . فقد ذكرت ليلي أبغ في كتابها : «*السادة الجدد في الشرق الأوسط*» :

إن بعثة فيليبس ، لم تكن بعثة علمية أبداً ، وإن فيليبس ، لم يتعب نفسه ، حتى في الحصول على فيزا من السلطات اليمنية . ونتيجة للمشاكل ، التي أثارها تركه اليمن ، متوجهاً إلى عمان ، من دون أن يكون مجبراً على ترك اليمن من قبل الحكومة . وكان يستخدم طائرة إنكليزية ، ينتقل بواسطتها من مكان إلى آخر ، والحقيقة أن فيليبس ، لم يكن قد أعد نفسه لهذه المغامرة إعداداً جيداً ، من الناحيتين العلمية والمالية . وقد صرف ستة عشر ألف مارك ألماني على موظفي المقاطعات ، وعلى أشخاص معينين ، كرشوة ، ولما رفض فيليبس تقديم نسخ لصور الحفريات ، التي صورها ، إلى حكومة اليمن ، سحبت الحكومة ثقتها به . وعند خروجه من اليمن ، رفض تفتيش أمتعته وحقائبه ، من قبل جند الحدود . وبسبب تعامله ، غير الصحيح

ووقاحته ، جعل نفسه في موضع الريبة ، فمن الممكن أن تهرب ، في هذه الطريقة ، كنوز أثرية مهمة ، إلى خارج الحدود . . لقد ترك فيليبس البلاد هارباً ، دون أن يخبر السلطات المسؤولة عن خروجه . . . وقد حدثت نتيجة تصرفاته تلك ، بعض المشاكل الديبلوماسية . وقد نشرت جريدة «نيويورك تايمس» خبراً ، مفاده أن الحكومة اليمنية مهتمة اهتماماً بالغاً بما حدث ، إذ إن بعثة سينمائية ، قامت بتصوير فيلم حول ملكة سبأ ، وإن هذه الفكرة وحدها ، كانت سبباً لهياج الحكومة اليمنية ، التي تحرم ، في الأساس ، التصوير السينمائي . .[99] .

أما آخر رحلة استكشافية ، في خارطة الجزيرة العربية ، فقامت بين العامين ١٩٤٥ و١٩٤٩ ، من قبل الأنثروبولوجي الإنكليزي ، فلفريد تيسيغر ، الذي تجول في الجزيرة العربية . ولم يكن تيسيغر ديبلوماسياً ، ولا عسكرياً ، بل كان عالماً أنثروبولوجياً متضلعاً ، سعى إلى دراسة الحضارة المادية والمعنوية للبدو والبداوة ، على أساس منهج البحث العلمي الميداني . وقد استغل تيسيغر عرضاً ، قدمه مركز البحوث البريطانية ، لمكافحة الجراد في الجزيرة العربية ، فشارك في تلك البعثة ، إلا أنه ما لبث أن انفصل عنها ، وعاش مع البدو ، فرافقهم في ترحالهم . وبذلك ، إستطاع دخول الربع الخالي واكتشافه عن كثب . ولهذا ، يعتبر تيسيغر المكتشف الحقيقي للربع الخالي ، الذي لم يستطع توماس وفلبي اكتشافه ، من قبل . كما استطاع أن يصل إلى آخر جبل من جبال عمان الشاهقة . وقد أشبع تيسيغر طموحه ، وهو العيش مع البدو ، ومقاسمتهم حياتهم الخشنة ، في السراء والضراء ، تلك الحياة ، التي لم تتغير ، منذ أكثر من ألفي عام .

وفي الحقيقة ، فقد كان تيسيغر من أولئك الأنثروبولوجيين الرومنسيين القلائل ، الذين وجدوا في حياة البادية الخشنة ، مهرباً لهم من مجتمعهم الصناعي المعقد ، حيث وجدوا حريتهم الطبيعية في الصحراء المكشوفة ، عالم

الصمت الواسع العميق ، بعيداً عن ضجيج المدنية الغربية ، التي لم تستطع منحهم شيئاً من الراحة النفسية . لقد زحزحت الحرب العالمية الثانية ، وما تبعها من كوارث ومآس وآثار أخلاقية واجتماعية ما سبقها ، ودفعت هذه الأوضاع البائسة كثيراً منَ المفكرين الأوروبيين إلى الهروب من مجتمعاتهم ، إلى مجتمع بسيط ، رومنسي ، ومثير ، قد يعيدهم إلى جو الحرية الطبيعية ، التي دعا إليها روسو ، من قبل . لقد وجد تيسيغر ، بين بدو الصحراء ، «مجتمعه الأمثل» ، الذي حلم به ، «وهو مجتمع وحيد ، ليس له مثيل» . وبألم مر وشديد ، يصف تيسيغر ، في كتابه «*رمال الصحراء*» ، تهديم المجتمع البدوي ، وتغيير أصالته ، من قبل التكنولوجيا الحديثة والسيارات والنفط[١٠٠] .

إن سلسلة الرحلات والبعثات الأوروبية ، إلى العالم العربي ، لم تنقطع ، غير أنها أخذت أشكالاً وأساليب وتسميات أخرى ، تتماشى مع التغيرات البنيوية ، التي حدثت في النظام الدولي ، بعد الحرب العالمية الثانية ، بصورة عامة ، والدول العربية والإسلامية ، بصورة خاصة ، بعد أن نالت دول العالم استقلالات ، بعضها شكلي ، وحاولت القيام بعمليات تنمية وتحديث ، على النمط الغربي ، كبديل للأساليب التقليدية القديمة ، التي لم تعد تتماشى مع حاجات تلك المجتمعات ومطامحها ، واندفعت إلى تطبيق مخططات وبرامج التنمية ، التي وضعها الأنثروبولوجيون وعلماء الاجتماع والخبراء الاقتصاديون والزراعيون .

وفي الواقع ، نشأت الأنثروبولوجيا مع الاستعمار ، وتطورت مع الأمبريالية ، بعد أن كانت ، في القرن التاسع عشر ، مجرد دراسات نظرية ، إستمدت معلوماتها الإثنوغرافية من الرحالين والتجار والمغامرين والعسكريين ، فيما وراء البحار ؛ ولذلك جاءت معلوماتهم بعيدة كل البعد عن واقع الحياة اليومية لتلك الشعوب والمجتمعات ، كما جاء أغلب آرائهم غير موضوعي ، ومملوءاً بالتعصب والأحكام المسبقة . وإلى جانب ذلك ، كان أغلب كتاباتهم

لا يتعدى حدود الوصف والانطباعات الخاطئة عن الشعوب والحضارات ، وعن عاداتهم وتقاليدهم وأنظمتهم الدينية والاجتماعية ، وبصورة خاصة الدراسات الأنثروبولوجية الموجهة ، من قبل المؤسسات الغربية ، لدراسة النظم والقوانين والبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد دافع عالم الأنثروبولوجيا الإنكليزي ، إيفانز بريتشارد ، عن استخدام الأنثروبولوجيين في أجهزة إدارة المستعمرات البريطانية . كما قامت المعاهد الأنثروبولوجية بمساعدة المبشرين وتكوينهم وإرسالهم إلى آسيا وأفريقيا . واعترف كثير منهم بدورهم في مساعدة الحكام والإداريين والعسكريين بإمدادهم بالمعلومات المهمة ، إذ كونوا ، في ذلك الوقت ، غطاء روحياً لكثير من بعثات التوسع الاستعماري ، وكانوا يقرنون نجاح أوروبا وتقدمها العلمي والتكنولوجي بالدين المسيحي وحده ، كما يقرنون إخفاق الشرق وتخلفه بالدين الإسلامي ؛ وبهذا ، يظهرون المسيحية وكأنها محبذة للتقدم ، والإسلام كمشجع للركود والتخلف ، وهي الصورة نفسها ، التي رسمها الأنثروبولوجيون والرحالون ، ولكن بصيغ جديدة . ومع الدعم المادي ، والإمكانيات العديدة والمستمرة لحركات التبشير ، فإنها لم تلقَ ، في العالم العربي ، تأييداً قوياً ، حيث وجدت أمامها عقبات مريرة ، وبصورة خاصة لارتباطها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بأوروبا الاستعمارية ، من جهة ، ولأن العرب ، مسلمين ومسيحيين ، ليسوا في حاجة إلى تبشير ، من جهة أخرى . وفي الحقيقة ، فإن المبشرين مختلفون في دوافعهم وأهدافهم وأساليب دعوتهم ، بل في مواقفهم من الآخرين . فمنهم من كان مدفوعاً بإيمان قوي ، يبشر به ، ويدافع عنه ، ومنهم من كان طامحاً للشهرة والمجد ، ومنهم من كان ذا مطامح شخصية ، ومصالح خاصة ، إستغل التبشير لتحقيق أهداف مادية رخيصة .

وفي الواقع ، فإلى جانب أهداف التبشير المختلفة ، وقفت حركة التبشير أمام محاولات إقامة «نهضة إسلامية جديدة» ، حاولت الوقوف أمام الاستبداد

العثماني ، من جهة ، والاستعمار الأوروبي ، من جهة أخرى ، في نهاية القرن التاسع عشر . وقد كتب القس سيمون ، في بداية هذا القرن :

> التبشير كان عاملاً مهماً في كسر شوكة الوحدة الإسلامية ، التي تجمع آمال الشعوب السمراء ، وتساعدها على التخلص من السيطرة الأوروبية . . إن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في نور جديد وجذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية عنصري القوة والتمركز فيها ، فإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلاً ضد الاستعمار الأوروبي ، وإذا استطاع المبشرون إظهار الأوروبيين في غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية ، سوف تفقد حجة من حججها ، وسبباً من أسباب وجودها[١٠١] .

وقد أعد بعض المبشرين إعداداً أيديولوجياً ، ودربوا تدريباً جيداً ، وعلى منهجية خاصة ، وتلقوا معلومات دقيقة ووافية عن البلدان ، التي ذهبوا للتبشير فيها ، وقد صوروا الشرق غيبياً متخلفاً ، وهذا ما ساعد بعضهم على الاندفاع في مهمتهم ، حاملين معهم أحكاماً قيمية مسبقة .

وهذه المواقف المنحازة ، لم تكن على مستوى التبشير فحسب ، بل نجدها ، أيضاً ، عند عدد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا . وقد كتب رادكليف براون أنه بتقدم الأنثروبولوجيا ، وبالتعاون مع حكومات المستعمرات ، نستطيع أن نتطلع إلى اليوم الذين تصبح فيه مسائل الإدارة والتعليم ، عند الشعوب «البدائية» ، المنتشرة في كل أنحاء العالم ، فناً ، يقوم على تطبيق القوانين ، التي يكتشفها العلم الأنثروبولوجي . كما قال إيفانز بريتشارد أن وسائل الإدارة والتعليم ، عند هذه الشعوب المتخلفة ، تحتاج دائماً إلى إجراءات وقرارات معينة . وسوف تساعد معرفتنا للحقائق المسؤولين ، بلا ريب ، على الوصول إلى قرارات صائبة وحكيمة ، تقلل من الوقوع في الخطأ والزلل ، مما قد يترتب عليه نتائج خطيرة . . . ومن الواضح أن المعرفة الأنثروبولوجية ، حول

الشعوب «البدائية» ، تستطيع أن تقدم للإدارة كثيراً من العون والمساعدة ، بل إنها أدت ، بالفعل ، خدمات من هذا النوع .[١٠٢] . وإلى جانب ذلك ، أصبحت الإثنوغرافيا ميداناً مهماً ، كشف ، بواسطته ، الأنثروبولوجيون والمستشرقون ، الذين عملوا في الشرق ، «أنهم يقدمون أعمالاً كثيرة مرموقة» . لقد أبدى ، في هذا الخصوص ، أدمون دوته (١٨٦٧ ـ ١٩٢٦) وأدوارد وسترمارك (١٨٦٢ ـ ١٩٣٩) اهتماماً كبيراً بإثنوغرافيا العالم العربي ، دون أي اهتمام بتحليل البنى الاجتماعية ـ الاقتصادية . ومع أن فون كرامر (١٨٢٨ ـ ١٨٨٩) كان أول مستشرق ألماني ، قدم مفاتيح لفهم المنظومات الدينية والاجتماعية في الإسلام ، غير أنه قدم تحليلاً لا علمياً لحركات الشيعة وثوراتهم ، لا يقوم على أساس منهج تاريخي ـ تحليلي ، يستند على الصراع الداخلي التحرري ، وعلى تناقض المصالح والأهداف للفئات الاجتماعية المختلفة ، وإنما على أساس مجرد صراع بين الأديان والقوميات ، باعتبارها ـ أي حركات الشيعة ـ رد فعل للروح الفارسية ـ الآرية على الإسلام العربي ـ السامي . وفي هذا خطل كبير . فالصراع بين الشيعة والسنة هو صراع أيديولوجي ، قبل أن يكون صراعاً قومياً أو دينياً .

الخاتمة: إستنتاج وتقييم

إن اهتمام أوروبا بالشرق ، بصورة عامة ، والعالم العربي ، بصورة خاصة ، مثل ، منذ البداية ، حركة توسع أوروبية ، خارج حدودها التقليدية . وقد كانت الحروب الصليبية بداية مباشرة لتلك الحركة . لقد ظهر التطلّع إلى السيطرة على العالم العربي ، في حركة الرحلات والتجار والحجاج إلى الأراضي المقدسة ، في فلسطين ، فبينما كان السائح اليوناني ، أو الروماني سابقاً ، سائحاً فضولياً مغامراً ، كان سائح العصور الوسطى المسيحي ، إما حاجاً إلى الأراضي المقدسة ، في فلسطين ، أو تاجراً ، يقوم بعقد صفقة تجارية ، أو إثنوغرافياً ، يجمع معلومات جديدة عن الشرق . وقد ازداد الاهتمام والتطلع إلى الشرق ، بعد التحول السياسي ـ الاقتصادي ، الذي طرأ على الدولة العربية ـ الإسلامية ، بعد تفككها وانحلالها ، في بداية العصور الوسطى ، وبعد التحول في ميزان القوى السياسية والاقتصادية ، لمصلحة أوروبا ، الأمر الذي وسع وعمق دوافع وأهداف أوروبا في السيطرة ، التي تمخضت عنها روح التعصب والتوسع العسكري ، لملوك أوروبا وأمرائها ، وانفجار الحروب الصليبية ، التي كان من نتائجها جمع معلومات إثنوغرافية وافية عن الشرق والعرب والمسلمين ، من طريق الرحالين والتجار والعسكريين والمغامرين ، والتي كانت ، في الغالب ، معلومات منحازة ، وبعيدة عن روح البحث العلمي ، كما كانت سبباً من أسباب إثارة روح التعصب الديني والسلالي ، ضد العرب والمسلمين .

وإلى جانب انعقاد الصلات التجارية والعسكرية ، فقد أخذ الاهتمام بالشرق والعالم العربي يتزايد ، خصوصاً بإنجازاته الحضارية والعلمية وأهميته السياسية والاقتصادية ، وبعد ان تعرف الغرب بالازدهار الحضاري والثقافي ، في بغداد وصقلية والأندلس ، وتم نقل وترجمة أمهات الكتب العلمية والفلسفية ، باللغات اللاتينية والعبرية .

وخلال عصر النهضة ، إزداد اهتمام أوروبا بالشرق ، وأصبح أكثر تنظيماً وشمولاً ، بعد أن توسعت مطامح البورجوازية الأوروبية ، وانطلقت خارج حدودها الجغرافية التقليدية ، وبعد ان أخذ التطور العلمي والثقافي ، يسير على وتيرة واحدة وسريعة ، مع روح التوسع العسكري ، الذي تمخضت عنه حركة الاستكشافات الجغرافية ، وفرض السيطرة على طرق التجارة والمواصلات البرية والبحرية ، للبحث عن أسواق ومواد أولية جديدة ، وتصريف البضائع والمنتوجات الصناعية الواسعة ، وتأسيس قواعد عسكرية واقتصادية عديدة . هذه العوامل بمجموعها ، دفعت ، من جديد وبزخم أقوى ، حركة الرحلات والاستشراق إلى أن تقوى وتتوسع ، وتصبح مؤسسات ثقافية وسياسية ، ترتبط ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، بأيديولوجية ومصالح القوى الأوروبية الجديدة ، التي نمت وتطورت على أنقاض المجتمع الإقطاعي المنهار . وفي هذه المرحلة ، أخذت هذه المؤسسات بعداً جديداً ، بعد أن نمت إمكانياتها الثقافية والمالية ، وتطورت أجهزتها العلمية والإدارية ، واكتسبت بنية فكرية وأيديولوجية ثابتة ، إنطوت على تشكيلة من النظريات والتصورات والوظائف .

ومع انطلاقة عصر التنوير ، تمثل الانفتاح والتقدم والعقلانية ، في التطلع إلى ثقافات ولغات جديدة ، يلقح بها الأوروبي ثقافته ، ويراكم بها معرفته ، وينفتح على المجتمعات الأخرى ، غير الأوروبية ، وينظر إلى البلدان والشعوب نظرة إنسانية ، غير أن أفكار عصر التنوير ، عجزت عن تحقيق أهدافها

الإنسانية ، وتحولت إلى أيديولوجيا لخدمة الدولة البورجوازية الجديدة ، التي شجعت على فكرة التمركز الأوروبي .

وبعد تحول الرأسمالية ، بعد منتصف القرن التاسع عشر ، نحو عصر الأمبريالية ، تم تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ، غير مباشر ، للدول الصناعية الكبرى ، والذي تمت بموجبه السيطرة على المؤسسات الثقافية وتوجيهها والتحكم في مسارها ، ليصبح كثير من المستشرقين والأنثروبولوجيين من العناصر المهمة في هذين التحكم والتوجيه . وهكذا ، تم «تغريب» العالم الثالث ثقافياً ، مثلما تم «تحديثه» اقتصادياً ، بتبنيه النموذج الغربي في التنمية ، ذلك النموذج الذي يرمي إلى اكتساب المشروع الرأسمالي الحر ، والتبعية الكاملة للغرب .

واستقراء لأعمال الرحالين والمستشرقين ، نخلص إلى ما يلي :

أولاً ـ إن الكثير مما قام به الرحالون والمستشرقون والأنثروبولوجيون ، لا ينفصل ، في الحقيقة ، عن الأهداف السياسية والاقتصادية الاستعمارية .

ثانياً ـ في الوقت الذي وقع فيه أغلب رحالي العصور الوسطى في شرك رؤية منحازة إلى الشرق ، عموماً ، والعرب والمسلمين خصوصاً ، ظهرت حركة تحدٍّ دينية ـ حضارية جديدة : شرق مقابل غرب ، ومسيحية مقابل إسلام . وقد اعتبر الأوروبيون الشرقيين «سرسانن» ، بمعنى برابرة خطرين ، يجب الوقوف في وجههم بحزم .

وفي الوقت الذي تطورت فيه الصلات التجارية ، بين الشرق والغرب ، وتعرف الغرب بالتراث الحضاري والعلمي ـ التجريبي للعرب والمسلمين ، بقيت صورة الشرقي هي الصورة نفسها ، التي نسجتها الأيديولوجيا السائدة ، إنساناً غبياً وعاجزاً عن استكناه الواقع .

ثالثاً ـ وعلى مستوى آخر ، فقد وقع رحالو ومستشرقو عصر التنوير في شراك رؤية منحازة وعنصرية ، إرتبطت بفكرة التمركز الأوروبي . وقد تغيرت صـورة الشـرقي الكافـر الغـبي ، إلى صـورة الشـرقي السلبي المتـخلف واللاعقلاني .

ومع ذلك ، فقـد ظهر عـدد من العلمـاء والمستشرقين والأنثـروبولوجيين المخلصين ، الذين تميزوا عن غيرهم بمعرفة واسعة وعميقة بشؤون العالم العربي والإسلامي ، فقـدموا إضافات علمية قيمة ، وبخاصة أولئك الذين وظفوا أنفسهم في خدمة البحث العلمي ، وتعاطفوا مع الشرق والشرقيين ، وقدموا إضافات قيمة في سعيهم المتواصل للكشف عن التراث العربي ـ الإسلامي المشرق ، والمطمور في طيات العزلة والنسيان ، فحققوا النصوص التراثية ، وترجموها ، وشرحوها ، ونشروها ، فكانوا السباقين إلى الكشف عن الجوانب الخفية والمشرقة من تراثنا الثقافي ، مثلما قدموا دراسات قيمة لتحليل الأوضاع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بمنظار علمي أكاديمي متنور .

وفي الحقيقة فرزت حركة الرحلات والاستشراق والأنثروبولوجيا ، من مجمل حركتها التاريخية ، نماذج من العلماء والمفكرين ، الذين خرجوا على إطار مبدأ التمركز السلالي الأوروبي ، ونماذج أخرى ، إنساقت وراء أيديولوجيا الغرب ومصالحه .

الهوامش

(١) Wissman Arabien, s. 19, 1965.

(٢) Stagel, Kulturanthropologie, s. 24, 1974.

(٣) كحالة ، دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، ص ١١ ، ١٩٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٢٠ و١٤٣ .

(٥) جغلول ، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، ص١٢٤ وما بعدها ، ١٩٨٠ .

(٦) حشيشو ، ورقة من تاريخ الاستشراق الألماني ، ص٤٥ ، ١٩٦٦ .

(٧) Rodinson. Maxime. Die Faszination des Islam s. 23.

(٨) Wissman, ibid. s. 14

(٩) حشيشو ، المصدر نفسه ، ص٤٥ .

(١٠) Rodinson. ibid. s. 24.

(١١) تعني كلمة «سرسانن» (Sarasanen) العرب بوجه عام ، وكذلك ، إستطراداً ، الشرقيين . وبحسب رودنسون ، ربما اشتُقّت الكلمة من اسم سارة ، زوجة النبي إبراهيم ، أنظر . Rodin-son. s. 18 ويشير سيمون إلى أن الكلمة اشتُقّت من اسم قبيلة عربية ، من شرق البحر المتوسط ، تدعى سرحان . أنظر . H. Simon. Ibn Khaldun. s. 56. 1956 .

(١٢) Stein. L. Die alteste Beschreibing der Bedninen. s. 6. 1968.

(١٣) Rodinson. ibid, s. 18.

(١٤) Wissman. s. 19.

(١٥) حشيشو ، ص٤٥ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص٤٧ .

(١٧) Stein. s. 61.

(١٨) Wissman. s. 19

(١٩) Faber. F. Die Pilgerfahart des Bruder Felixins Heilige Land.

(٢٠) Stein. s. 64.

(٢١) المصدر نفسه ، ص٦٨ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص٧١ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص٧٧ .

(٢٤) أنظر . Rodinson. ibid. s. 27 .

(٢٥) ibid. s. 28.

(٢٦) أبو العزم . تطور الدراسات الإسلامية في أوروبا . ص١٣٢ ، ١٩٨٠ .

(٢٧) أنظر Rodinson. ibid. s. 55.

(٢٨) أبو العزم ، المصدر السابق ، ص١٣٣ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص١٣٣ .

(٣٠) أنظر Fuck. Die Arabischen studien in Europa. Leipzig. s. 71.

(٣١) أبو العزم ، ص١٣٤ .

(٣٢) Fuck. ibid. s. 92 F.

(٣٣) Rodinson. ibid. s. 43

(٣٤) ibid. s. 44.

(٣٥) ibid. .s 55.

(٣٦) آلان غريش ودومنيك فيدال ، الخليج ، مفاتيح لفهم حرب غير معلنة ، قبرص ١٩٩١ ، ص٤٥ .

(٣٧) Wissman. ibid. s. 19.

(٣٨) ibid. s. 19.

(٣٩) ibid. s. 20.

(٤٠) أنظر صادق جلال العظم ، الاستشراق والاستشراق معكوساً ، ص٥ و١٠ ، ١٩٨١ .

(٤١) Rodinson. ibid. s.59.

(٤٢) Fuck. ibid. s. 30.

(٤٣) هللر ، أردموته ، شهرزاد والحركة الرومنسية في أوروبـا ، ص٥١ ـ ٥٢ ، فكر وفن ، ١٩٨٥ .

(٤٤) المرجع السابق ، الغرب في مرآة الشرق ، ص ٣٤ ، فكر وفن ، ١٩٨٤ .

(٤٥) المرجع السابق ، شهرزاد . . ، ص٥٣ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص٥٧ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص٥٨ .

(٤٨) أنظر Fuck. ibid. s. 148.

(٤٩) أنظر ibid. s. 94.

(٥٠) أبو العزم ، ص١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٥١) أنظر أيضاً odinson. ibid. s. 59.

(٥٢) إبراهيم الحيدري ، النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير ، ص ١١ ، ١٩٨٩ .

(٥٣) Rodinson. ibid. s. 68.

(٥٤) ibid. s. 71

(٥٥) philosophishes Worterbuch. s. 513f. 1965.

(٥٦) Rodinson. ibid. s. 67.

(٥٧) حميد الله ، تطور الدراسات والترجمات القرآنية في أوروبا . مجلة فكر وفن ، العدد الثاني ، ١٩٦٣ .

(٥٨) هللر . الغرب في مرآة الشرق ، ص٣٤ ـ ٣٥ .

(٥٩) غرين ، ستيفن ، صور من عالم خيالي ، ص٢٧ ، فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٤ .

(٦٠) هللر . مصدر سابق ، ص٣٤ .

(٦١) غرين ، ص ٣١ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٦٣) أنظر Neibuhr: C.F. Reisebeschreibung nach. Arabien und anderen enden - Landern, Tulingen und Basil. 193 (3 Bande).

(٦٤) Scurla. H. Reisen in Orient. S. 17-18. 1962.

(٦٥) المرجع السابق ، ص٢٦ .

(٦٦) أنظر Wissmann. s. 50

(٦٧) المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٦٨) Burchardt. Reisen in Arabien. 158 ff. 1963.

(٦٩) المرجع السابق ، ص١٥٩ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص١٣٧ .

(٧١) حشيشو ، ص٥٦ .

(٧٢) المصدر السابق ، ص٥٧ .

(٧٣) Wissmann. ibid. s. 21.

(٧٤) المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٧٥) Botta. P.E. Jemen. s. 14 - 19 - 1840.

(٧٦) Wrede. A. Reise in Hadramad. s. 95 - 97 - 1810.

(٧٧) فولشليجر ، هنز ، كارل ماي والشرق ، ص٦٠ ، فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٤ .

(٧٨) كلوتز ، فولكر ، عبر الصحراء - روايات المغامرات والرحلات وأعمال كارل ماي ، ص٧٢ ، فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٤ .

(٧٩) فيلنبورج ، جرترود ، صورة الإنسان والشرق في روايات كارل ماي ، مجلة فكر وفن ، ص٦٧ ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٤ .

(٨٠) كلوتز ، فولكر ، ص٧٠ .

(٨١) فيلنبورج ، ص٦٤ .

(٨٢) Daughty, C.M. Die offenbahrung Arabian. s. 31f. 1928

(٨٣) Laurence. In Vorwort Zu offenbahrung. s. 30.

(٨٤) أنظر Wissmann. s. 208-209.

(٨٥) أنظر Oppenhein, Max F. Von. Die Beduinen.

(٨٦) oppenhein. M.F. Von Mittelmer Zum perssischen Golf. 8d. I, II, Berlin, 1990.

(٨٧) بحري ، الأطماع الأجنبية في جزيرة أبو موسى ، ص٢٣١ ، ١٩٧١ .

(٨٨) Wissmann. ibid. s. 22.

(٨٩) أنظر علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ملحق ج ٦٠ ، ص٣٥٤ ، ١٩٧٩ .

(٩٠) أنظر Wissmann. ibid. s. 25.

(٩١) أنظر Philby, John, Sheba's Daughters. London. 1939.

(٩٢) Philby, John, Arabian Highlands. New York. 1952.

(٩٣) الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ج٦ ، ص٣٦١ .

(٩٤) Wissmann. ibid. s. 258-259.

(٩٥) ibid. s. 23.

(٩٦) Meulen, Von deni. Hadhramut, das Wunderland. s. 65. London 1947.

(٩٧) أنظر Ingrams, H. Befriedete Wuste, s. 262. Wiesbaden - 1950 Wissmann. ibid. s. 25.

(٩٨) Wissmann. ibid. s. 25.

(٩٩) Abeggililyi. Neue Herren in Mittelost. DVA. s. 25. Stuttgart, 1954.

(١٠٠) Thesiger, F. Die Brunnen der Wuste. S. 12. 1959.

(١٠١) عمر فروخ ومصطفى خالدي ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص٣٧ .

(١٠٢) E.E. Evans - pritchard. Social Anthropology. s. 41. 1951.

المصادر العربية

١ ـ أبو العزم ، عبد الغني : تطور الدراسات الإسلامية في أوروبا ، مجلة دراسات عربية ، العدد ٧ ، بيروت ١٩٨٠ .

٢ ـ آلان ، غريش ـ دومنيك فيدال : الخليج ، مفاتيح لفهم حرب معلنة ، ترجمة إبراهيم العريس ، قبرص ١٩٩١ .

٣ ـ بحري ، لؤي : الأطماع الأجنبية في جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧١ .

٤ ـ بوتو مور : علم الاجتماع والنقد الاجتماعي ، ترجمة محمد الجوهري وآخرين ، بيروت ١٩٨١ .

٥ ـ جان بول ، سورية كنال وآخرون : حول نمط الإنتاج الآسيوي ، ترجمة جورج طرابيشي ، بيروت ١٩٦٨ .

٦ ـ جرين ، ستيفن : صور من عالم خيالي ، مجلة فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ ١٩٨٤ .

٧ ـ جغلول ، عبد القادر : الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، بيروت ١٩٨٠ .

٨ ـ حشيشو ، محمد علي : ورقة من تاريخ الاستشراق الألماني ، مجلة فكر وفن ، العدد ٢ ، هامبورغ ١٩٦٦ .

٩ ـ حميد الله ، محمد : تطور الدراسات والترجمات القرآنية في أوروبا ، وبصورة خاصة في ألمانيا ، مجلة فكر وفن ، العدد ٢ ، هامبورع ١٩٦٣ .

١٠ ـ الحيدري ، إبراهيم : جدلية الحوار حول أطروحة ماكس فيبر البروتستانتية وروح الرأسمالية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الأول ، الكويت ١٩٩٠ .

١١ ـ الحيدري ، إبراهيم : في تاريخ الاتجاهات الرئيسية في علم الاجتماع المعاصر ، دراسات نقدية ، كتاب معد للطبع .

١٢ ـ الحيدري ، إبراهيم : النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير ، مجلة دراسات عربية ، العددان ٩/ ١٠ ، بيروت ١٩٨٩ .

١٣ ـ فروخ ، عمر ، والخالدي مصطفى : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، بيروت ١٩٧٤ .

١٤ ـ فولشيجر ، هنز : كارل ماي والشرق ، مجلة فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ ١٩٨٤ .

١٥ ـ فيلنبورج ، جرترود : صورة الإنسان والشرق في روايات كارل ماي ، مجلة فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ ١٩٨٤ .

١٦ ـ كحالة ، عمر : دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، بيروت ١٩٧٣ .

١٧ ـ كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٧٥ .

١٨ ـ كلوتز ، فولكر : عبر الصحراء ، روايات المغامرات والرحلات وأعمال كارل ماي ، فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ ١٩٨٤ .

١٩ ـ مروة ، حسين : النزعات المادية في الفلسفة العربية ـ الإسلامية ، ج ١ و٢ ، بيروت ١٩٨٠ .

٢٠ ـ الوردي ، علي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، ملحق ج٦ ، بغداد ١٩٧٩ .

٢١ ـ وصفي ، عاطف : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ،القاهرة ١٩٦٧ .

٢٢ ـ هللر ، أردموته : الغرب في مرآة الشرق ، مجلة فكر وفن ، العدد ٤٠ ، ميونخ ١٩٨٤ .

٢٣ ـ هللر ، أردموته : شهرزاد والحركة الرومنسية في أوروبا ، مجلة فكر وفن ، العدد ٤٢ ، ميونخ ١٩٨٥ .

٢٤ ـ هنري ، مارك : العالم المتخلف ، في : المجتمع الحديث في أبعاده الأساسية ، ج٢ ، دمشق ١٩٨٣ .

المصادر الأجنبية

1 - Abegg, Lilyi, Neuce Herren in the Mittlelost, AVA, Stuttgart, 1954.

2 - Botta, P.E., Jenen, Das Ausland, Nr. 14, 1840.

3 - Breidenbach, B. Von, Perigrinationes in Montem, (Syon, 1486), In Dukoment, Wiss. 1965.

4 - Burchardt, D.L. Reisen in Arabien, Weimar 1830, (Nachdruck in Stuttgart 1963).

5 - Doughty, C.M., Die offenbahrung Arabien, 1928.

6 - Engels, F., Dialektik der Natur, Berlin, 1962.

7 - Evans - Pritchard, E.E., Social Authropology, 1951.

8 - Faber, F., Die Pilgerfarht des Bruder Felix ins Heilige Land, 1964.

9 - Fadé, Diawara, Manifest des Primitiven Menschen, Münschen, 1979.

10 - Fück, Die Arabishen Studien in Europa, Leipzig, 1955.

11 - Goethe, Gesamelte Werbe, Bd. II, Hamburg, 1968.

12 - Hocking, Ernst, Re-thinking Missions, 1932.

13 - Ingrams, H. Befriedete Wüste, Wiesbaden, 1950.

14 - Krader, L. Die ethnologishen Exzerpthe, Berlin, 1976.

15 - Lawrence, Th. E. Im Vorwort zur offenbahrung Arabien,..

16 - Lessing; Nathan der Weise, Berlin, 1962.

17 - Meulen, Von, Hadramut, das Wunderland, London, 1947.

18 - Niebuhr, C., Reisebeschreibung nach anderen unliegenden Ländern, Tübingen 1973 (3 Bände).

19 - Oppenheim, Die Beduinen, Bd, I, II, III, Wiesbaden, 1952.

20 - Oppenheim, Von Mittelumeer Zum Persischen Golf, Bd, I. Berlin 1900.

21 - Philly, J. ; Arabien Highland, New York, 1952.

22 - Philby, J.; Das gcheimisvalle Arabien, Leipzig, 1925.

23 - Philby, J.; Sheba's Dauthers, London, 1939.

24 - Philips, W.; Otban and Sheba, London, 1950.

25 - Philosophisches Wörterbuch, Körner Verlag, Stuttgart, 1965.

26 - Rodinson, Die Faszination des Islam, Beck Verlag, Munschen, 1985.

27 - Scurla, H; Reisen in Orient, Berlin, 1952.

28 - Stägel. J.; Kulturanthropologie und Geselleschaft, Münschen, 1974.

29 - Stin, L., Die ältesten Beschreibungen der Beduinen, Berlin, 1968.

30 - Thesiger, W.; Die Brunnen der Wüste, 1959.

31 - Wild, J.; Mekka und Medina, in: Klassische Reisebeschreibung, Hrsg. Von Narciss, Stuttgart, 1964.

32 - Wissmann, Arabien, Dokumente zur entolekungsgeschiclite, Stuttgart, 1965.

33 - Werde, A. Reise in Hadramut, Braunschweig, 1970.

المحتويات

لا يزال موضوع الاستشراق واحداً من الاهتمامات الأساسية للمثقف العربي. وهذه المساهمة تقاربه من زاوية «الأطماع الأجنبية»، والكيفيّة التي تطورت فيها.

ومن أجل استكمال غرضه، يزخر الكتاب بألبوم عن السجل الممتد من الرحلات الأولى للحجّاج إلى آخر النظريات التي تناولت الموضوع، وذلك في موازاة تطور علم الفيلولوجيا والأنثروبولوجيا وغيرهما.

ويندرج هذا العمل في سياق محاولات عربية تشتغل على تطوير نظرة موضوعية إلى مسألة كثرت السجالات المتصلة بها. والمؤلف، الذي جمع إلماماً بالثقافة الغربية، إلى أصوله الثقافية العربية والمسلمة، يمتلك ما يؤهله القيام بمهمة كهذه تتقاطع عندها الثقافات.

ISBN 1 85516 505 8



